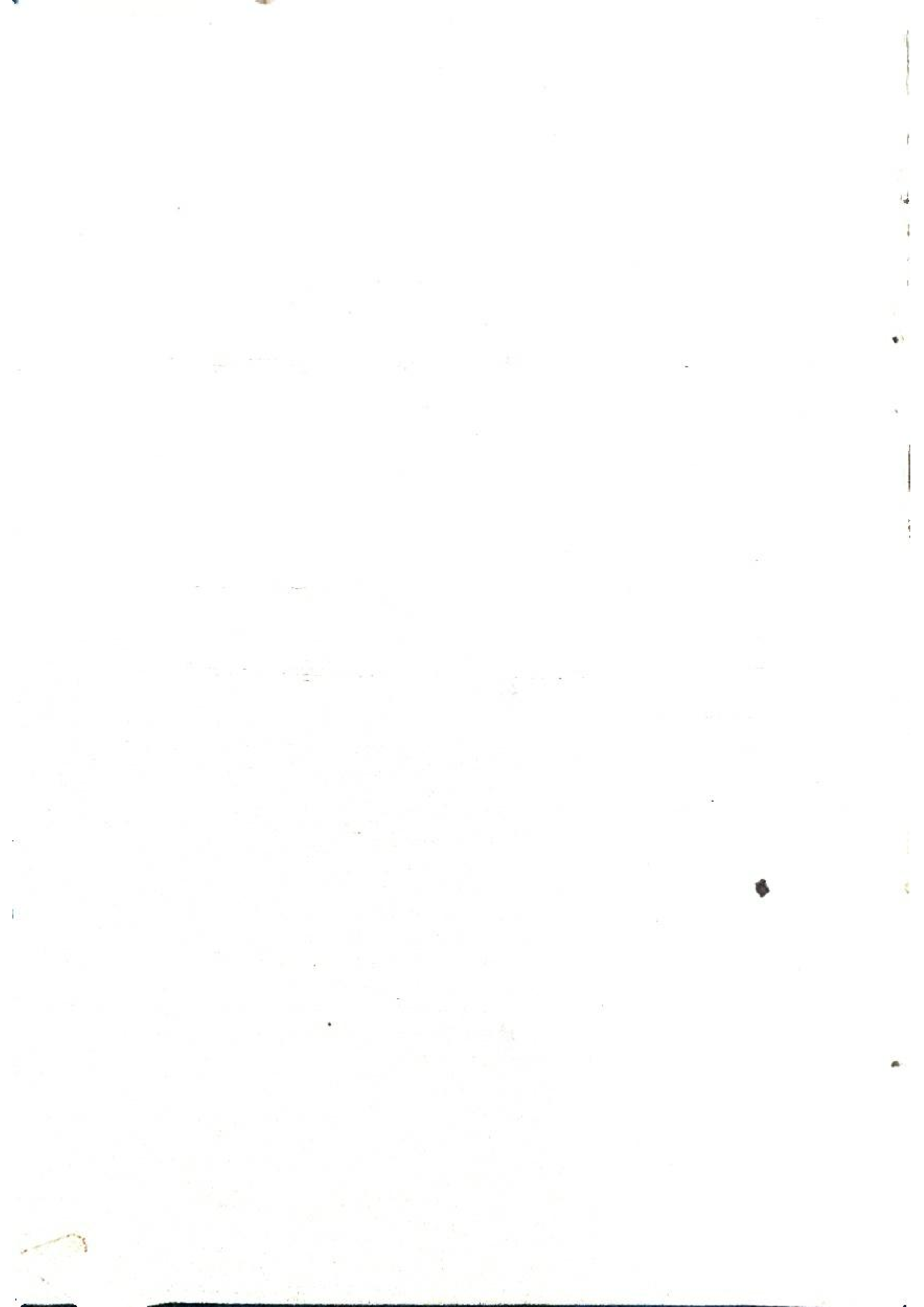
نجدة فتحي صفوة

حكايات دبلوماسية



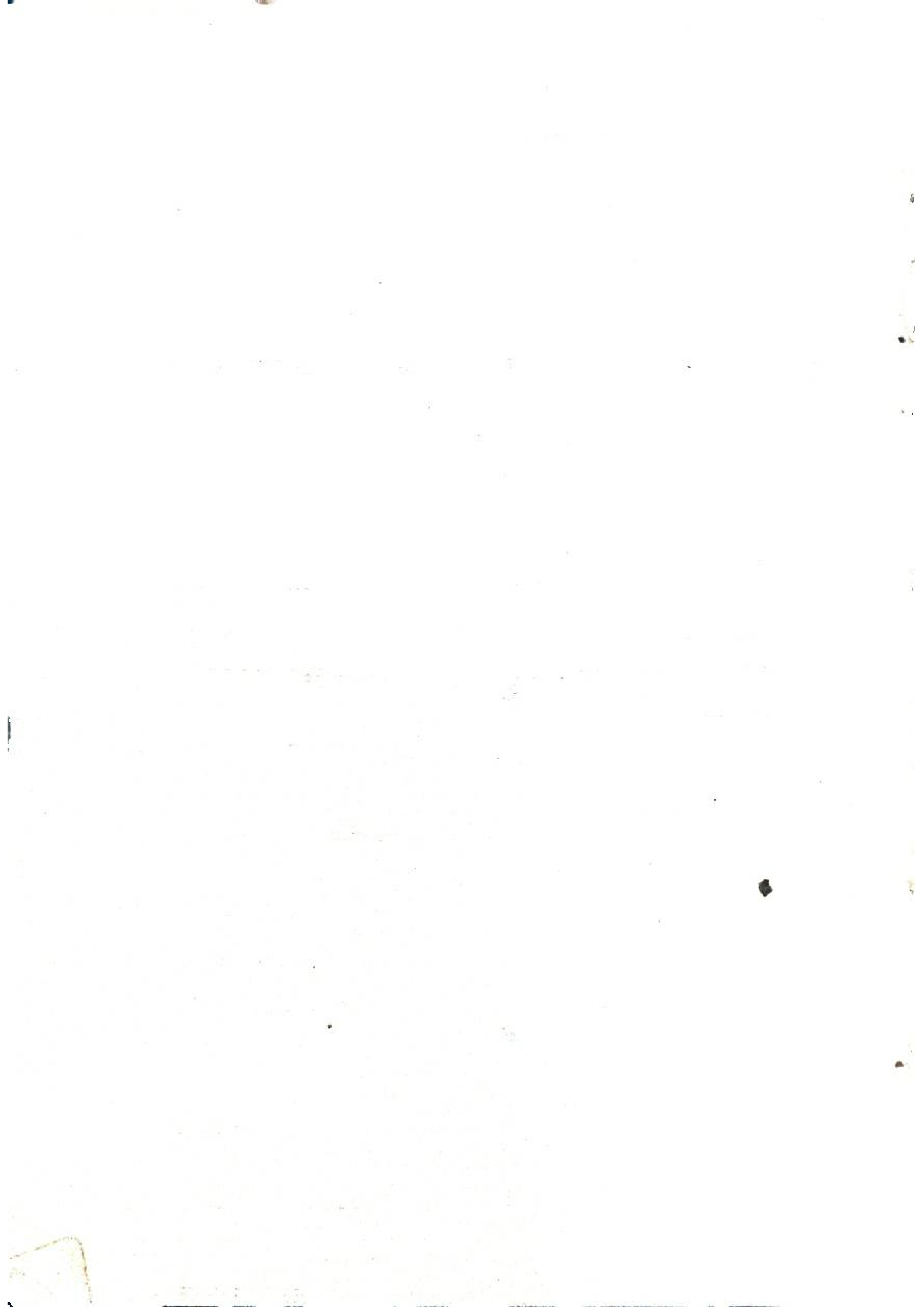
حكايات دبلوماسية





نجدة فتحي صفوة

حِكايات دِبلومَاسِية



المحتويات



مقدّمة

في كل عاصمة من عواصم العالم جالية أجنبية مختلطة صغيرة ، تحيا في جوّ خاص ، وتتمتع برعاية ومكانة تنفرد بهما دون سواها من الناس .

وتعيش هذه الجالية كمجموعة من الطيور الغريبة ، جمعت بينها الظروف لفترة محدودة ، في مكان واحد . وقد يكون هذا المكان مريحاً ، جميلاً ، معتدل المناخ ، غنياً بأسباب الترفيه والتسلية ، وقد يكون شاقاً عسيراً ، قاسي الجوّ ، متخلّفاً عن ركب الحضارة . وأيّا ما كان ، فلا بدّ لأفراد هذه الجالية من التعايش ، والتحلّي بالصبر ، إلى ان يحين الأجل الموقوت ، فيغادرون مكانهم هذا واحداً بعد آخر ، آسفين أو غير آسفين ، ويشدّون الرحال إلى مكان جديد ، قد تكون ظروف العيش فيه أفضل من سابقه ، وقد لا تكون .

وكلما صغرت الحاضرة التي توجد فيها هذه الجالية ، أو ضاق فيها مجال الاختلاط بسكانها الأصليين (بسبب الخوف من الأجانب أو شعور الكراهية نحوهم) ازداد أعضاؤها اختلاطاً بعضهم ببعض ، وانكماشاً على أنفسهم ، وكلّما كبرت المدينة ، وكثرت فيها أسباب التسلية ، أو كانت مفتوحة ينعم اهلها بالحرّية الفرديّة ، ويمكن الاختلاط بهم ، تشتت شمل هذه الجالية ، وتفككت وحدتها ، الاّ بالقدر الذي تفرضه المناسبات الضرورية والواجبات الرسمية .

وقد تكوّنت في أذهان الناس عن هذه الجالية — على مرّ العصور —

هالة من الأفكار شطّت بهم عن الواقع ، حتى أصبحت بنظر الكثيرين طبقة ممتازة ، مدللة ، مترفة ، تعمل قليلاً ، وتلهو كثيراً ، تنعم بالامتيازات ، وتعيش على الحفلات ، وتتشبث بالترّهات . ومع ذلك ، فان أولئك الناس لا يجدون بدّاً من قبول هذه الجالية بينهم ، والسكوت عمّا يضايقهم من ساوكها ومظهرها ، وان كانت نظراتهم والملاحظات التي تندّ منهم أحياناً تفشي مكنون رأيهم فيها ، وفكرتهم عنها ، وشعورهم نحوها .

هذه الجالية الشاذّة في مظهرها ، المغتربة عن أوطانها ، المتعددة لغاتها ومللها ، المشوّهة صورتها في الأذهان ، هي « الهيئة الدبلوماسية » التي يقضي أفرادها حياتهم متنقلين من بلد إلى بلد ، ومن قارّة إلى قارّة ، ومعهم أهلهم وأمتعتهم ومشاكلهم ، حتى إذا عادوا إلى أوطانهم في خاتمة المطاف ، وجدوا أنفسهم غرباء فيها أيضاً ، وقد تفرّق أهلوهم ، وتشتت أصدقاؤهم ، واختلفت عليهم معالم البلاد والعباد ، ووجدوا الكثير مما كانوا يألفونه في السابق غريباً ، وما كانوا يحنّون اليه في الغربة تافهاً ، بعد أن تغيرت عاداتهم ، وتطوّرت أذواقهم ، فأصبحوا مجموعة قلقة : غريبة في الخارج ، وغريبة في أوطانها ، محسودة من الأجانب ، ومحسودة من أبناء جلدتها .

وتحفل حياة هذه المجموعة المختلطة ، بحكم طبيعة مهنتها — وهي من أقدم المهن وان لم تكن أقدمها — بالأحداث الغريبة ، والمصادفات العجيبة ، والمشاكل المتنوّعة ، والمشاهد الطريفة ، والمفاجآت المزعجة ، والمآسي المؤلمة .

ويصف السفير الايطالي « بييترو كواروني » الدبلوماسية — في مذكراته — بأنها كرسي من الدرجة الأولى في مسرح الحياة . وهو وصف صادق حين يكون الدبلوماسي متفرّجاً يرقب الأحداث وهي تتعاقب ، ويشهد التاريخ وهو يصنع . ولكن في حياة الدبلوماسي حالات يكون فيها هو بطل الرواية ، أو موضوع القصة ، فيجد نفسه في هذه المرّة ، ليس على كرسي الدرجة الأولى الوثير ، بل في قلب المسرح ،

وقد سلّطت عليه الأضواء ، وشخصت اليه الأبصار .

ويحتوي هذا الكتاب على مجموعة من القصص مثلت على مسرح الحياة ، وكان أشخاصها دبلوماسيين شاءت لهم المقادير أن يخرجوا من صفوف المتفرّجين في ذلك المسرح ليعتلوا خشبته ، ويمثلوا الأدوار التي اختارتها لهم . وهي أدوار شتى ، منها المشرّف ومنها المخزي ، وبعضها سعيد خاتمته سارّة ، وبعضها الآخر تعيس ينتهي نهاية مؤلمة . وهي جميعاً قصص حقيقية ، ليست فيها إضافة من بنات الخيال ، ولا تلاعب في الوقائع ، وقعت لدبلوماسيين (سمّيتهم بأسمائهم) ممن عرفتهم شخصياً ، أو قرأت أخبارهم وتتبعتها ، وجمعت شواردها من هنا وهناك ، فألّفت بينها ، وصغتها بأسلوب لم أسمح فيه لقواعد الكتابة القصصية أن تحوّر شيئاً من وقائعها ؛ ولا للحقائق التاريخية والاحداث الجافّة أن تطغى عليها ، وتشوّه شكلها القصصي .

و « حقائق الحياة » رواية رديئة للقصص – كما يقول سومرست موم – فهي تبدأ القصة اعتباطاً ، وفي الغالب قبل بدايتها بمدة طويلة ، ثم تهيم بأحداثها وتتخبط في غير نظام معلوم ، ولا خطة مرسومة ، وتقطعها فجأة دون خاتمة واضحة ؛ مخلّفة وراءها أذيالاً مقطوعة ، وأخرى متدلّية . ولذلك فان « الحقائق » للكاتب القصصي ليست أكثر من مادة خام ، فهي ضرورية لانتاجه ، وعليه أن ينقّب عنها حتى يعثر عليها ، ولكنها ليست كل شيء في عمله . والعثور عليها بداية مهمته وليس نهايتها . فعليه أن يصهرها ، وينقّيها من شوائبها وفضولها ، ثم يعيد صياغتها متماسكة الأطراف ، ذات انسجام ووحدة في الموضوع ، ويضفي عليها عنصر التشويق والمفاجأة ، مع إبقائها ممكنة الوقوع ، متّفقة مع قوانين الطبيعة وطبائع البشر .

وبعض « الحكايات » التي يضمّها هذا الكتاب اكتملت فيها عناصر القصة التقليدية في الشكل والموضوع ، ففيها عقدة ، وفيها بداية ، وقمّة ، وخاتمة . وبعضها يروي أحداثاً طريفة أو غريبة ، ولكنها ليست أقاصيص ، ومنها ما شهد المؤلف أحداثها ، أو تتبع

أخبارها يوماً بعد يوم ، ومنها ما اطلع على جانب منها ، وأكمل سائر جوانبها مستعيناً بما كتبته الصحف أو روته الكتب ، ومنها من عرف أبطالها ، أو قابل بعض أشخاصها ، وواحدة منها وقعت له شخصياً .

فهذه « الحكايات » إذن ليست مجموعة قصصية بالمعنى الدقيق ، ولكنها أيضاً ليست مجموعة من المقالات عن بعض الحوادث الدبلوماسية ، ولا هي من قبيل المذكرات التي يكتبها الدبلوماسيون عن حياتهم ومشاهداتهم ، فهي تلمّ من كل هذه الأشياء بطرف ، مع عناية بالسرد القصصي حيثما كان ذلك ممكناً ، وتثبّت من صحة الأحداث والوقائع من الناحية التاريخية ، ولذلك فانني لم أسمّها « قصصاً » ، ولم أدعها « أحاديث » او « ذكريات » ، وانما عنونتها بـ « الحكايات » ، وهو عنوان يحتمل تلك المعاني جميعاً .

وستُظهر هذه الحكايات أنّ حياة الدبلوماسيين ليست لهواً كلها ، وليست سريراً مفروشاً بالورود — كما يحسبها الكثيرون — وانما هي حياة لها مشاكلها ، ومآسيها ، ومآزقها ، مثلما لها حسناتها وامتيازاتها .

وستظهر هذه القصص — الحقيقية — أيضاً أن الدبلوماسيين ليسوا مخلوقات غريبة شاذّة ، تكيّفت تكيّفاً خاصاً — كما ينظر اليهم البعض — وانما هم بشر أسوياء من لحم ودم ، لهم ما لغيرهم من غرائز طبيعية ونزعات ، ونواحي ضعف وقوّة ، وفيهم الشجاع والجبان ، والنزيه والفاسد ، والقويّ الذي لا يلين ، والضعيف الذي يرتخي أمام المرأة او المال . وفيهم الشريف الذي يلتزم بالقواعد الأخلاقية فلا يحيد عنها ، وفيهم أيضاً من لا يتورّع عن استغلال مهنته وامتيازاتها أبشع استغلال ، مشوّهاً — ليس سمعته الشخصية وحدها — بل سمعة بلاده ومهنته وزملائه .

وقد يلاحظ القارىء أن الأحداث التي تؤلف موضوع هذه الحكايات جرى معظمها في عواصم معدودة ، أو وقع أكثرها لدبلوماسيين من أقطار محدودة على أنه — بلا ريب — سيتفهّم ذلك ويتقبّله ، حتى يعلم أن هذه العواصم والأقطار هي التي قضى فيها

المؤلف معظم سني خدمته ، خلال جولته الطويلة في العمل الدبلوماسي . فمن الطبيعي أن يكون الجزء الأكبر من الحوادث التي شهدها ، والوقائع التي اهتم بها ، والذكريات التي سجلها ، مما وقع في تلك البلاد ، أو حدث لدبلوماسيين من ممثليها .

وبالرغم من أن هذه الحكايات قد تثير اهتمام الدبلوماسيين أكثر من غيرهم ، فانها كتبت لعامة القرّاء ، وجعلت في جملة أهدافها أن تخترق بهم تلك الهالة الوهمية التي تكونت حول الدبلوماسيين ، ليعيشوا معهم بعض مشاكلهم ومآسيهم ، ويشاركوهم شيئاً من سرائهم وضرائهم .

بغداد في ١٠ حزيران ١٩٦٩ ن.ف.ص.



شكسبير ... والقائم بالأعمال السوفيتي

في اليوم الثالث والعشرين من شهر نيسان في كل عام ، يقام في (ستراتفورد اون ايفن) – مدينة شكسبير – مهرجان كبير احتفالا بذكرى مولد شاعرها الخالد ، يفتتح بحفلة في احدى ساحات المدينة ، ويعقبها موسم يستغرق بضعة أسابيع تعرض خلاله مجموعة من مسرحياته .

وقد جرت العادة أن يدعى لحضور حفلة الافتتاح ممثلو الدول الأجنبية المعتمدون في لندن ، وأن ترفع في مكان الاحتفال أعلام تلك الدول مجاملة لممثليها ، ورمزاً للتقدير الذي يتمتع به الشاعر العظيم ليس في بلاده وحدها ، وانما في بلاد العالم أجمع ، على اختلاف مللها ولغاتها .

وفي نيسان سنة ١٩٢٦ كانت مدينة ستراتفورد تستعد – كعادتها في كل سنة – للاحتفال بالذكرى الـ (٣٦٢) لمولد شكسبير .

وفي تلك الآونة ، كانت العلاقات بين بريطانية والحكومة الجديدة التي قامت في روسيا تجتاز مرحلة من التوتر الشديد .

وبالرغم من اعتراف بريطانية القانوني بالحكومة السوفيتية (منذ شباط سنة ١٩٢٤) فان الرأي العام البريطاني لم يكن قد تقبل بعد فكرة قيام دولة شيوعية سوفيتية في روسيا . كما أن كثيراً من اللاجئين الروس من أصحاب النفوذ في النظام القيصري القديم كانوا يمارسون نشاطاً معادياً للحكومة السوفيتية في الخارج ، ولا يزالون على صلة ببعض الأوساط البريطانية الرسمية .

وقد زاد في توتر الجو بين البلدين نشر رسالة نسبت إلى « زينوفييف »

بوصفه رئيساً للاممية الشيوعية (الثالثة) قيل إنه وجهها إلى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي البريطاني ، وفيها تحريض للحزب على اللجوء إلى أساليب معينة لقلب نظام الحكم في بريطانية . وبالرغم من كثرة الشكوك التي حامت حول صحة هذه الرسالة وانكار الجهات السوفيتية وتكذيبها ، واقتراحها عرض الأمر على هيئة تحكيم محايدة ، فان تزويرها لم يثبت بالدليل القاطع ألا بعد أربعين عاماً ، حيث اعترف بعض الروس البيض الذين كانوا يقيمون في المانيا في ذلك الوقت أنهم قاموا بتزويرها بقصد الاساءة إلى علاقات بريطانية بالحكومة البلشفية . ولكن الرسالة حققت مهمتها المرجوة ، إذ سبّب نشرها عاصفة من الهياج لم يسبق لها في بريطانية مثيل ، وأدى إلى هزيمة حزب العمال الحاكم – برئاسة رمزي مكدونالد – في الانتخابات العامة التي كان موعدها بعد نشر الرسالة بأيام قلائل . وتذهب التخمينات المعتدلة إلى أن نشر هذه الرسالة كلّف حزب العمال أكثر من مئة مقعد في مجلس العموم ، وكان من شأنها أن قررت مستقبل العلاقات البريطانية – السوفيتية لسنوات عديدة قادمة ، إذ كان لا بد لحكومة تسنّمت الحكم بفضلها أن تتبع سياسة مناهضة للاتحاد السوفيتي .

وفي مثل هذا الجوّ السياسي المعتكر ، وفي أوائل نيسان سنة ١٩٢٦ ، تسلمت السفارة السوفيتية في لندن ، فجأة ، دعوة للاشتراك في الاحتفال بذكرى شكسبير في مدينة ستراتفورد يوم ٢٣ نيسان .

وبالرغم من أن العادة جرت بدعوة الممثلين الدبلوماسيين للاشتراك في هذا الاحتفال ، فلم يسبق أن وّجهت الدعوة إلى الممثلين السوفييت في هذه المناسبة . وقد اتضح فيما بعد أن الدعوة أرسلت إلى السفارة السوفيتية سهواً ، وأن المسؤول عن إرسالها كاتب صغير في وزارة الخارجية البريطانية عهد اليه بكتابة بطاقات الدعوة إلى رؤساء البعثات الدبلوماسية الأجنبية . وكان هذا الكاتب على غير معرفة بظروف السياسة العليا ولا بطبيعة علاقات بريطانية الدولية وموقفها من الاتحاد السوفيتي ، فما كان منه الا أن أرسل بطاقات الدعوة إلى جميع البعثات

الدبلوماسية المعتمدة في لندن كما وجدها في القائمة دون تمييز .

وكان السفير غائباً ، والقائم بأعمال السفارة هو مستشارها (ايفان مايسكي) الذي أصبح فيما بعد من أشهر الدبلوماسيين السوفييت ، وسفيراً للاتحاد السوفييتي في لندن مدّة تزيد عن عشر سنوات بضمنها سنوات الحرب العالمية الثانية .

وعلى أثر وصول الدعوة واطلاع القائم بالاعمال عليهاأجاب بقبولها فوراً ، وأعرب في جوابه عن سروره الفائق للاشتراك في هذا الاحتفال لما يتمتع به شكسبير في بلاده من عظيم التقدير والتبجيل .

وما إن وصل جواب القائم بالأعمال السوفييتي إلى لجنة الاحتفال في ستراتفورد الا ّ كان له وقع القنبلة المفاجئة . فسادت اللجنة بلبلة كبيرة ، وبدأت سلسلة من الاتصالات والاستفسارات والاجتماعات والمناقشات .

وأحيط أعضاء « نادي شكسبير » علماً بالحادث ، فعقدوا اجتماعاً فوق العادة للاحتجاج على دعوة الممثل السوفييتي ، وأرسلوا إلى الحكومة عريضة وّقع عليها ٢٣٣٨ شخصاً — في مدينة سكانها ١٥٠ الف تقريباً — مطالبين بمنع الممثلين السوفييت من الظهور في الاحتفال ، والحيلولة دون رفع العلم السوفييتي بين أعلام الدول المساهمة فيه . وكان يقود هذه الحملة سيدة تدعى « مسز ملفيل » وهي زوجة قسيس كنيسة ستراتفورد التي يرقد شكسبير في مقبرتها .

وفي الوقت نفسه تسلّم « مايسكي » برقية من رئيس بلدية ستراتفورد « المستر بلارد » — وكان أيضاً رئيساً لنادي شكسبير — يبلغه فيها برغبته في القدوم إلى لندن لمقابلته ، ويرجو تحديد موعد له . فأبرق « مايسكي » أنه سيكون مسروراً لمقابلة رئيس البلدية ، وحدد يوم ١٣ نيسان موعداً له .

حاول رئيس البلدية خلال المقابلة أن يقنع مايسكي بالعدول عن الذهاب إلى ستراتفورد ، مبينا له بأنهم وان كانوا سيسرّون لرؤيته في الاحتفال الا أن في المدينة بعض عناصر الشعب التي لا يؤمن جانبها ،

وأنهم يخشون وقوع حادث قد لا تكون عواقبه مستحبّة .

وكان « مايسكي » دبلوماسياً قديماً محنكاً ، وقد مرّت به تجارب أكثر تعقيداً وأشد حراجة . ولم يكن بطبعه ليخشى شيئاً من ذلك أو يرهبه احتمال وقوع حادث مفترض . فأجاب رئيس البلدية ومرافقيه بانهم أصحاب الدعوة ، وأن الممثلين السوفيت ليسوا الا ضيوفاً، فان هم سحبوا دعوتهم فانهم لن يذهبوا طبعاً . ولكن طالما بقيت الدعوة قائمة ، فانه يرى من واجبه الاستجابة لها .

وضع هذا الاقتراح ، وهو سحب الدعوة ، رئيس البلدية في حرج جديد . إذ لم تعرف في تاريخ « نادي شكسبير » في ستراتفورد سابقة كهذه ، وأن الدعوة إذا أرسلت فلا سبيل إلى سحبها .وخرج رئيس البلدية حائراً .

وبعد بضعة أيام استدعي القائم بالاعمال « مايسكي » إلى وزارة الخارجية البريطانية ، فذهب في الموعد المحدد ، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يذهب فيها إلى وزارة الخارجية منذ سنتين ، فقابله أحد الموظفين — وهو مدير الشعبة الشمالية — وبعد أن تأكد منه أن الدعوة من ستراتفورد قد وصلته فعلا ، وأنه أجاب بقبولها ، شرح له باسهاب أن في الأمر شيئاً من الصعوبة والاحراج ، وأن سكان المدينة يسودهم هياج شديد لتوقع اشتراك وفد سوفيتي في الاحتفال ، وأن من المحتمل وقوع حادث غير مرغوب فيه . وذكره بصعوبة السيطرة على جمهور كبير من الناس ، ولذلك فانه مضطر إلى إحاطة مايسكي علماً بوجود مثل هذا الشعور ، وأنه ربما يكون من الافضل ، إزاء هذه الظروف ، أن يتغيّب عن الحضور تفادياً لأي حادث محتمل قد يؤدي إلى تعقيدات أو مشاكل في العلاقات بين البلدين .

وبالرغم من كل ذلك فقد أجاب « مايسكي » باللهجة الهادئة نفسها التي كلّم بها رئيس بلدية ستراتفورد قبل أيام ، وقال إنه اجتاز في حياته تجارب لا تحصى وبعضها لم يسبق له مثيل . وانه بطبعه ليس سريع الاضطراب او الانفعال . ولذلك فانه لا يتهيّب أي حادث

مزعج محتمل . وأضاف أنه — فوق ذلك — كبير الثقة بحكومة صاحب الجلالة وقدرتها على حفظ الأمن والنظام في أراضيها . وعلى أثر ذلك صرّح الموظف في وزارة الخارجية أننا وان كنا سنتخذ الاجراءات كافة لصيانة الأمن والمحافظة على سلامة الممثلين السوفييت ، فاننا قد حذرناكم وشرحنا لكم الامر على حقيقته . فقال مايسكي وهو يخرج : « ومع ذلك فانني أعتزم الذهاب . »

وأصبحت قضية اشتراك السوفييت في احتفال شكسبير منذ منتصف شهر نيسان موضوع الساعة ، ومدار الأحاديث والمناقشات ، وأخذت الصحف تبحثها في مقالاتها الافتتاحية وتذهب في التعليق عليها شتّى المذاهب . فصحافة « المحافظين » تشير إلى السخط الشديد الذي يسود الأوساط البريطانية ، وتطالب بمنع ظهور الممثلين السوفييت في الاحتفال. وصحافة حزبي العمال والأحرار تتخذ موقفاً معاكساً لذلك . وسرت بين الناس مختلف الاشاعات : سيحدث في يوم الاحتفال اضطراب وهياج شعبي كبير ... سيقع حادث لم يسبق له مثيل ... ربما سيمزق العلم السوفييتي ويتعرض الممثلون السوفييت للاعتداء ...

وكان من نتيجة هذه المناقشات الحامية والاشاعات المتضاربة أن عقدت نقابات العمال في برمنكهام اجتماعات عديدة للاحتجاج على هذه النوايا « الشريرة » من جانب العناصر المحافظة ، وقررت اقتحام مدينة ستراتفورد — وهي لا تبعد عن برمنكهام كثيراً — في يوم الاحتفال لمساعدة الوفد السوفييتي وحمايته .

وأخذت القضية بملابساتها العديدة تكتسب أبعاداً غريبة إلى درجة أقلقت وزارة الداخلية وسلطات الأمن التي وجدت من الضروري ان تخفف بعض الشيء من الهياج المتزايد ، ومن وقع الاخبار المثيرة التي تظهر في الصحف ، فأعلنت أن « سكوتلانديارد » سيرسل حرساً خاصاً إلى ستراتفورد بقصد المحافظة على الأمن والهدوء ، ومنع وقوع أي حادث مكدّر .

وفي تلك الأثناء كان القائم بالاعمال يتخذ الترتيبات اللازمة

للذهاب إلى ستراتفورد في موعد الاحتفال في هدوء غريب ، وأرسل اليها في عشيّة الاحتفال علماً كبيراً لبلاده صحبه أحد موظفي السفارة ليعلق على السارية المخصصة له صباح اليوم التالي . وقد أبدى الموظف لدى عودته أنه لاحظ ذعراً شديداً بين الموظفين والمسؤولين في ستراتفورد ، وشعوراً أشبه ما يكون باليأس والوجوم .

وفي صباح يوم الاحتفال توّجه « مايسكي » على رأس وفده إلى ستراتفورد بعربة خاصة ربطت بأحد قطارات الصباح ، وحجزت للممثلين الدبلوماسيين الذاهبين إلى الاحتفال . وكان الوفد مؤلفاً من أربعة أشخاص : القائم بالاعمال ، وزوجه ، والقنصل السوفيّي العام في لندن ، والشاعر الروسي نيقولاس مينسكي الذي كان يقيم في لندن في تلك الايام .

وكانت محطة ستراتفورد مكتظة بالناس عند وصول القطار ، فاستقبل الوفد موظفوالبلدية واتجهوا بهم إلى السيارات التي كانت بانتظارهم حيث ذهبوا مباشرة إلى مكان الاحتفال .

وكان ألوف الناس قد تجمهروا في الشارع والساحات المحيطة به وشرفات البيوت ونوافذها وسطوحها لمشاهدةالوفد الذي أثارت دعوته كل هذه الضجة .

وعندما نزل « مايسكي » والوفد السوفيّي من سيارته ساد المكان سكون عميق ، وحبس الناس أنفاسهم . وغلت الدماء في عروق بعضهم . كان كل شيء ينذر بعاصفة مخيفة . وتقدّم « مايسكي » مع زوجه وزميليه ، فعبر الشارع واتجه نحو المنصة بخطى وئيدة ورباطة جأش غريبة ، وكانت ألوف الابصار شاخصة اليه ، تتبعه بنظرات الغضب والفضول والقلق ، حتى استقر في المكان المخصص له قرب قاعدة السارية التي سيرفع عليها علم بلاده .

وكانت إلى جانب منصة الاحتفال ساحة كبيرة تقام فيها السوق الأسبوعية في المدينة . وكان يلاحظ أنها مزدحمة أيضاً ، ولكن بمجموعة من الناس تختلف في لباسها ونظراتها . فقد جاء عمال برمنكهام

واحتشدوا في تلك الساحة تأييداً للوفد السوفيتي . وكان الجو بينهم مختلفاً جداً ، وقد لحظ مايسكي أن الابتسامات تعلو وجوههم ، وأن بعضهم كانوا يلوحون بقبعاتهم أو أيديهم .

وفي تمام الساعة الثانية عشرة ظهرا قرعت الطبول، وشدّ ممثلو الدول التي اشتركت في الاحتفال الحبال التي ربطت بها أعلامهم . فنشرت الاعلام مرفرفة في الميدان . وقد قامت بهذه العملية ، نيابة عن الوفد السوفيتي ، السيدة « مايسكي » زوجة القائم بالاعمال .

وأعقبت ذلك مسيرة الوفود ، يتقدمهارئيس البلدية وموظفوها ، إلى مرقد شكسبير ، وكان كل وفد يحمل باقة أو اكليلاً ليضعه بأسم بلاده على القبر . وكان مايسكي يحمل إكليلاً من البنفسج . وعندما بلغت الوفود الكنيسة التي يرقد شكسبير في مقبرتها كان قسيس المدينة ، المستر « ملفيل » واقفاً ، يتسلّم الاكاليل من وفد بعد آخر ويضعها على الضريح برفق وخشوع . وعندما جاء دور « مايسكي » ، تردد القس لحظة ، ولكنه لم يجد مناصاً من تسلّم الاكليل من يده . وكان وجهه خالياً من أي تعبير ، وأشبه بسحنة مومياء . ومن المقبرة توجهت الوفود إلى بيت شكسبير لزيارته ، وهو اليوم متحف لآثاره ، ثم إلى حفلة الغداء التي تقام في قاعة البلدية بهذه المناسبة .

وكانت العادة الجارية في ذلك الوقت أن يلقي كل ممثل دبلوماسي كلمة بعد الغداء باسم بلاده . وقد افتتح الكلام خطيب بريطاني ، وأعقبه الممثلون الدبلوماسيون حسب تسلسلهم في القدم . وكان مايسكي قدأخبر رئيس البلدية أنه يرغب في القاء كلمة قصيرة ، فوضع اسمه في القائمة على مضض . ومع ذلك عندما تعاقب الخطباء وجاء دور « مايسكي » لاحظ أن رئيس البلدية تخطّاه ، ودعا إلى الكلام من يليه ، فحسب أن الامر خطأ قد يصحح عند انتهاء الخطيب ، ولكن المتحدث الذي دُعي بعده كان ممن يلي مايسكي أيضاً ، فاخرج بطاقته وكتب عليها : « الظاهر أنكم نسيتم أن تدعوني إلى الكلام ، فارجو أن تفعلوا . انني لا أزال راغباً في القاء كلمة » .

فبدا الاحراج على رئيس البلدية ، وعرض البطاقة على الجالسين حوله ، وكان مايسكي يسترق النظر اليهم وهم يتهامسون ويتناقشون ، وقد بدا عليهم الاحراج والاضطراب ايضاً .

وأخيراً نهض رئيس البلدية ودعا « القائم بالاعمال السوفيتي » الى الكلام، وكان وجهه – كما وصفه مايسكي لأصدقائه فيما بعد– أشبه بوجه من يستعد للارتماء في ماء بارد عميق .

وقام مايسكي . فصفّق له بعض الحاضرين ، وأخذ البعض الآخر يخرج أصواتاً خافتة أشبه بالهسهسة إعراباً عن الاستهجان . فانتظر لحظات في مكانه ، حتى خفتت الأصوات ، فبدأ الكلام . ولم يكن في خطابه أي كلام سياسي . وانما تحدّث عن شكسبير فقط ، وعمّا يتمتع به من تقدير واحترام في بلاده. وقال إن معظم رواياته تمثل على مسارحها . وقوبل الخطاب مقابلة مزدوجة . وكان الناس بين مصفق ومقاطع بعبارات المعاكسة .

وانتهى الغداء،ولكن القصة لم تنته . فقد استعدت الوفود للعودة إلى لندن بالقطار الخاص . وبينما كان مايسكي على أهبة المغادرة تقدم اليه بعض موظفي البلدية ، برقة ولطف زائدين ، وعرضوا عليه أن يرافقوه مع جماعته لزيارة بعض الاماكن والمعالم التي تستحق المشاهدة في المدينة وضواحيها ، أذا هم رغبوا في ذلك . فوافق الوفد السوفيتي ، واتجهوا مع موظفي البلدية إلى السيارات وجوّلوا في الضواحي المحيطة بستراتفورد ، حتى وصلوا محطة قطار صغيرة تبعد حوالي خمسة عشر ميلاً عن ستراتفورد ، باتجاه لندن . وهناك اقترح المرافقون ، بلطف زائد أيضاً، أن الوفد ربما يرغب في أن يستقل قطاره من هذه المحطة، بدلاً من إضاعة الوقت في العودة إلى ستراتفورد، وأبدوا لهم أنهم اذا فاتهم هذا القطار فانه لا بد لهم من انتظار عدة ساعات أخرى قبل أن يحل موعد القطار التالي . وقد اتضح سبب هذه العناية الخاصة التي حظي بها الوفد السوفيتي دون سائر الوفود فيما بعد . إذ كتبت الصحف في اليوم التالي أن البلدية كانت تخشى حدوث مظاهرة كبيرة في

المحطة أثناء مغادرة الوفد السوفيتي قد تؤدي إلى اصطدام بين أهل المدينة وعمال برمنكهام . ولذلك قررت استدراج الوفد إلى محطة صغيرة أخرى .

وكانت زوج « مايسكي » عند قدومها إلى ستراتفورد قد جلبت معها حقيبة صغيرة وضعت فيها بعض حاجاتها الشخصية ، وكان زوجها يحملها عنها طيلة مدة الاحتفال وخلال المسيرة . ووصفت إحدى الصحف المسائية الصادرة في اليوم التالي هذا الاحتفال بأسلوب مثير ، ووردت في وصفها الفقرة الاتية :

« .. وكان القائم بالاعمال ، طيلة الاحتفال ، يتصرف كشخص اعتيادي مسالم ، الا أن المتفرجين كان يخامرهم شك واحد . فقد لاحظوا أنه كان يحمل طيلة الوقت حقيبة صغيرة، فاعتقد الكثيرون أنها كانت تحتوي على قنابل » .

قابلت المستر مايسكي في موسكو في اليوم الثاني والعشرين من نيسان سنة ١٩٦٦ (أي بعد هذه الحادثة باربعين عاماً بالضبط) ، وذلك في حفلة السفارة البريطانية بمناسبة عيد ميلاد الملكة – الذي يصادف في ذلك اليوم – وكانت هذه المناسبة الوحيدة التي صار مايسكي يشاهد فيها في السنوات الاخيرة بعد أن تقدمت به السن واصطلحت عليه العلل . ويظهر أنه كان يحرص على حضور حفلات السفارة البريطانية بسبب صلته القديمة واقامته الطويلة في إنكلترة ، حيث أقام فيها لاجئاً سياسياً قبل الثورة ، وممثلاً دبلوماسياً بعدها ، وبلغ مجموع اقامته فيها عشرين سنة تقريباً .

وقد التمست من يعرفني عليه ، فبدا شيخاً هادئاً خفيض الصوت حيياً ، ولكن الذكاء كان لا يزال يشع من عينيه العميقتين ذات النظرات الحزينة بالرغم من سنيه الثلاث والثمانين التي أحوجت سمعه إلى ترجمان . وكان يتكلم الانكليزية بسهولة ، وبلكنة روسية ملحوظة.وهو اليوم عضو أكاديمية العلوم السوفيتية (منذ سنة ١٩٤٦)،

وقد كرّس سنواته الاخيرة لتدوين مذكراته ونشرها باللغتين الروسية والانكليزية .

قلت له إنني قرأت الكثير عنه كما قرأت مذكراته الاخيرة ، ولكن حادثة الاحتفال بذكرى شكسبير تضحكني كاما تذكرتها .

فبدت على عينيه نظرة غريبة ، وكأنه يتطلع إلى شيء بعيد في الأفق ، ثم ابتسم وقال :

« كان ذلك قبل مدة طويلة جداً »

« وهل تحنّ إلى ايامك تلك ؟ »

فقال في ابتسامة مريرة : « بعد أربعين عاماً ستحن إلى أيامك هذه ! » ، ثم سكت لحظة وقال :

« أما أنا فلن أكون هنا » .

شهيد في تبريز

في مدخل وزارات خارجية بعض الدول (لوحة شرف) رخامية ، هي أول ما يواجه الداخل اليها . وتنقش على هذه اللوحة أسماء موظفي الخدمة الخارجية الذين يضحون بحياتهم في سبيل بلادهم . أو يلقون حتفهم خلال خدمتهم في الخارج لتمثيل بلادهم ورعاية مصالحها بعيداً عن أهلهم ووطنهم .

ولو كانت في وزارة خارجيتنا مثل هذه اللوحة اذن لقرأنا عليها أسماء عديدة بينها عبد الوهاب درويش وفيصل عبدالله وشكيب علي غالب وكمال جواد وعدنان النقيب — عليهم رحمة الله جميعاً .

ولعل مصرع المرحوم عبد الوهاب درويش ، قنصل العراق في تبريز في سنة ١٩٤١ ، من أغرب الحوادث التي تعرّض لها دبلوماسي عراقي في الخارج ، ومن أكثرها اثارة للأسف والأسى — وان كانت كلها مؤسفة ومؤلمة — لأنها جاءت نتيجة مصادفة غريبة وحظ عاثر .

كانت الحرب العالمية الثانية في أشدّ أوارها . عندما تردد في تبريز ، المدينة النائية في شمال ايران ، أن الجيش السوفيتي سيدخلها قريباً .

وكان في المدينة عددصغير من القنصليات بينها القنصليات البريطانية والفرنسية والتركية . وكانت للعراق فيها قنصلية أيضاً يومذاك . وكان القنصل البريطاني — بسبب قدمه — بمثابة العميد للسلك القنصلي الصغير في المدينة .

وكان قنصل العراق ، عبد الوهاب درويش ، قد زار القنصل البريطاني في صباح يوم ٢٥ آب ١٩٤١ ، وتحدث معه في الأحوال السائدة عندئذ ، ثم زار القنصل العام التركي . ولكنه لم يمكث عنده سوى مدّة قصيرة جداً ، فقد اقترح عليه القنصل التركي أن يبقى عنده ذلك اليوم ، أو يسرع في الرجوع إلى قنصليته، لأن الجيش السوفيتي على أبواب المدينة ، وقد يدخلها قريباً ، واذا دخلها فمن المحتمل أن تقع بعض الاضطرابات ، فضلا عن أن القنابل كانت تلقى منذ يومين، مما لا يحمد معه السير في الشوارع . وبالرغم من أن عبد الوهاب درويش كان بمفرده في تبريز — وكانت عائلته في بغداد — فقد فضّل العودة إلى قنصليته ، وعاد اليها من فوره .

ودخلت القوات السوفيتية المدينة حوالي الساعة الثانية بعد ظهر ذلك اليوم فعلاً . وقد سبقت الجيش السوفيتي مفرزة حماية لاكتساح ما يحتمل وجوده من قوّة نظامية أو غير نظامية قد تباغت الجيش أثناء مسيره بالقنابل اليدوية أو غيرها في الشوارع أو البيوت . وتقدّمت هذه المفرزة لاحتلال ثكنة الجيش الايراني في شارع (شاهبور) الذي تقع فيه بناية القنصلية العراقية ، وقد انشطرت صفّين سار كل منهما على أحد رصيفي الشارع ، مواجهاً أبنية الرصيف الآخر . وقد حدث أن أفراداً من الجيش الايراني أطلقوا النار عندئذ ، فأخذت تقابلهم بالمثل ، فساد الذعر في المدينة ، وهرع الناس إلى بيوتهم ، وخلت الشوارع من المارة .

وبين الذين سادهم الذعر فرّاشو القنصلية العراقية الذين تركوا القنصل والقنصلية وولوا الأدبار ، بعد أن نزعوا ثيابهم الرسمية — الخاصّة بالقنصلية — وارتدوا أسمالا بالية ، مخافة أن يشتبه بهم أفراد الجيش السوفيتي فيحسبونهم من أفراد الجيش الايراني .

وعلى أثر دخول الجيش السوفيتي ، والأحداث التي وقعت خلاله من تبادل اطلاق الرصاص ، والذعر الذي ساد المدينة ، اقترح القنصل البريطاني أن تتخذ بعض الاجراءات لحماية دور القنصليات ، فخصصت

القيادة السوفيتية أربعة أفراد مسلّحين لحراسة كل قنصلية . وفي مساء ذلك اليوم أيضاً مرّ بالقنصليات ليخبر زملاءه بأن الأمور سارت على ما يرام ، وأن القنصليات يحرسها الجنود ، ولم يعد هنالك ما يدعو إلى الخوف أو القلق . وعندما جاء إلى القنصلية العراقية وجد بابها مغلقاً ، فظنّ أن القنصل قد خرج ، فعاد أدراجه .

وفي صبيحة اليوم التالي حضر أحـد فرّاشي القنصلية (محمد ابراهيم) بأسماله المهلهلة إلى التاجر العراقي (جمال جماله) مرتبكاً وقال له ان القنصل يطلب حضوره في الحال . وأسرع التاجر العراقي إلى القنصلية ، وكان الفرّاشون قد فتحوا أبوابها ، ولمّا دخل القاعة صعق في مكانه . كان القنصل عبد الوهاب درويش ملقى على ظهره جثة هامدة بالقرب من النافذة ، وقدماه إلى جهة الشارع . فاستدار على الفور وهرع إلى القنصل البريطاني وأخبره بما رأى ، ثم ذهب الاثنان إلى القنصل العام التركي ، فأخذاه معهما وذهبوا جميعاً إلى القيادة الروسية وأخبروها بالحادث . فاهتمّت القيادة بالحادث اهتماماً كبيراً وخشيت أن يستغلّه ضدّهم دعاة المحور أو غيرهم من أعدائها . وأرسل إلى القنصلية العراقية – مع التاجر العراقي والقنصلين – ضابط روسي وطبيب فحص الجثة وحرر شهادة الوفاة .

وكان تفسير الحادث أن القنصل العراقي أراد مشاهدة تقدّم القوة السوفيتية التي كانت تمرّ بشارع القنصلية ، وتشاء الصدفة أن يطلّ من النافذة في اللحظة التي يجري فيها تبادل إطلاق الرصاص بين المفرزة السوفيتية ، وأفراد الجيش الايراني . وتشاء الصدفة أيضاً أن تصيب القنصل في صدره طلقة من ستّ طلقات شوهدت آثارها على نوافذ الصالة ، فتودي بحياته على الفور – فيما يظهر – إذ لم يكن هنالك ما يدلّ على تحرّكه من مكانه .

وكان عبد الوهاب درويش يومذاك في الثالثة والأربعين من عمره وقد ترك وراءه زوجة شابة ، وطفلين أكبرهما في السابعة من عمره . وكان من قدامى موظفي وزارة الخارجية ، خدم في الجيش العثماني مدة

قصيرة ، ثم أصبح معلماً في مدرسة ابتدائية في احد الاقضية البعيدة في جنوب العراق ، وتدرّج بجدّه وطموحه في وظائف الدولة ، مواصلاً دراسته العالية خلال ذلك ، حتى عين في وزارة الخارجية في سنة ١٩٣٣ ، وتنقّل في قنصليات العراق في بيروت وفي المدن الايرانية ، ثم أصبح قنصلاً لبلاده في بومبي والقدس ، وقائماً بالاعمال في طهران ، حتى نُقل إلى تبريز في سنة ١٩٤٠ لأنه كان على موعد مع تلك الرصاصة الطائشة فيها .

واهتم القنصل التركي بتهيئة الدفن واجرائه وفق الشعائر الاسلامية ، وجرى تشييع الجنازة باحتفال لائق . وعندما علمت القيادة السوفيتية أن المرحوم كان ضابطاً سابقاً ، أخرجت فصيلا من الجيش في تشييع الجثمان ، وخرجت الجنازة ملفوفة بالعلم العراقي تحملها عربة مدفع ، وسار وراءها القناصل وعدد من الايرانيين والاجانب ، ولم يكن بينهم سوى عراقي واحد ، هو التاجر جمال جماله .

وشُيّع عبد الوهاب درويش ودفن في تبريز ، بعيداً عن أهله ووطنه ، وترّحم عليه أصدقاؤه وزملاؤه في بغداد ، وتحدّثوا عنه بضعة أيام ، ثم طواه النسيان ، ولم تبق من ذكره سوى إضبارة عتيقة في شعبة الذاتيّة ، مصفرّة الأوراق ، يعلوها غبار كثيف .

بحيرة البجع

في إحدى ليالي الشتاء من سنة ١٩٤٥ ، كان مسرح « البولشوي » في موسكو مزدحماً كعادته خلال موسمه السنوي ، فلم يكن فيه كرسي شاغر في طوابقه الستة وبين كراسيه الألفين .

وكانت فرقة البولشوي تعرض باليه « بحيرة البجع » لجايكوفسكي . وكان الاخراج متقناً ، والموسيقى بديعة ، ودور « أوديت » تؤديه ببراعة معجزة « أولانوفا » أشهر راقصات الباليه الروسيات في زمانها . وكان اداؤها رائعاً ينمّ في كل خطوة من خطواتها ، وفي كل خفقة من خفقاتها ، عن سيطرتها العجيبة على فنها ، وثقتها الكاملة بنفسها . كانت ، وكأنها تسير في الهواء ، لا تمّس الأرض إلاّ مسّاً رفيقاً ، ثم ترتفع من جديد ، فتقفز هنا ، وتميل هناك ، وتتلوّى ، وتتالفت ، وتنحني كدمية من مطاط ، ثم تثب فتنهض في زهو وخيلاء ، بقامتها المنتصبة وساقيهاالطويلتين . وتمدّ ذراعيها المعبرين ، وكأنهما ليسا أطرافاً بشرية ، بل جناحان خافقان ، أو موجتان راجفتان .

وانتهى الفصل الأول ، وأبدعت « اولانوفا » ما شاء لها الابداع ، واستمرّ التصفيق طويلاً ، ثم أخذ يخفّ ، وبدأ المتفرّجون يغادرون القاعة زرافات ووحدانا ، ليدخن منهم في البهو الخارجي من يدّخن ، أو يشرب فنجاناً من القهوة أو كأساً من الشامبانيا الروسية من يشرب .

وكان بين جمهور المتفرّجين في تلك الليلة ملحق شاب في السفارة البريطانية في موسكو اسمه « الفرد هول » ، وهو موظف أعزب ،

يعمل في شعبة الحفرة. وقد خرج من القاعة فيمن خرج ليشرب فنجاناً من القهوة ، ويزجي فترة الاستراحة بمشاهدة زمر المتفرجين من روس وأجانب . ومدّ الملحق الشاب رأسه إلى المقصف ، فرأى أمام الحاجز الذي تباع عليه القهوة صفاً طويلاً من المنتظرين . وكانت المرأة البدينة التي تدير القهوة بطيئة الحركة ، عابسة الوجه ، فبدا له أن العرض سيبدأ حتماً قبل أن يحلّ دوره لو وقف في الصف ، فعدل عن شرب القهوة ، ولمّا استدار ليعود إلى البهو الخارجي اصطدم في الباب بفتاة كانت تحاول أن تشقّ طريقها في الزحام ، فاعتذر اليها بأدب وبانحناءة بسيطة ، فاذا بها تجيبه بالانكليزية :

« لا بأس ، فالمحل شديد الزحام . »

ولمّا سمع الدبلوماسي الانكليزي الشاب هذا الجواب رفع رأسه والقى على الفتاة نظرة ثانية . لقد كانت روسية بلا ريب . شكلها ، وتصفيف شعرها وملابسها ... وكانت فتاة ذات جمال هادىء ، وعينين صافيتين ، في الثانية والعشرين من عمرها . ولم يكن في مظهرها ما يثير انتباه « هول » لولا إجابتها باللغة الانكليزية . وكان من النادر أن يلتقي المرء بين الروسيات من يتكلمها . فأثار ذلك فضوله ، فوقف إلى جانبها برهة ، وسألها :

« أراك تتكلمين الانكليزية . »

« نعم . »

« وأين تعلّمتها ؟ »

فأجابت الفتاة بانكليزية « أكاديمية » واضحة ، تشوبها لكنة روسية خفيفة : « إنني أدرس الأدب الانكليزي » .

واتصل الحديث بين الدبلوماسي البريطاني والطالبة الروسية « كلارا سترومينا » طيلة فترة الاستراحة ، وقد دار ، كما هو المعتاد في هذه الحالات ، عن « اولانوفا » وعن « بحيرة البجع » ، ومقارنتها بالباليهات الأخرى التي ستعرض في ذلك الموسم ، وفي الباليه التي يفضّلها كل منهما . وفهم « آلفرد هول » منها أنها ابنة كولونيل في الجيش الروسي ،

قتل في الحرب ، وأنها تدرس الأدب الانكليزي في جامعة موسكو ، مع تركيز خاص على شكسبير .

ولمّا انتهت الفترة ، وضرب الجرس الأخير مؤذناً بابتداء الفصل الثاني ، إتّجه « آلفرد » و « كلارا » إلى مقعديهما ، وكانا متباعدين ، وقال لها الشاب وهما في الممر يحاولان دخول القاعة بين جموع الناس الذين يدفع بعضهم بعضاً : « لنخرج في الفترة القادمة مبكرين لعلنا نحصل على شيء نشربه » .

وعلى أثر انتهاء الفصل الثاني سارع « آلفرد » بالخروج دون أن ينتظر انتهاء التصفيق ، ووصل المقصف قبل أن يزدحم فيه الناس . وبعد قليل أقبلت « كلارا » وهي تبتسم .

وحين انتهى الفصل الرابع من « بحيرة البجع » ، وأخذ المتفرّجون يخرجون من المسرح الدافىء إلى زمهرير موسكو ، وهم يتراكضون مرتجفين لتتفرّق جموعهم في محطات المترو ومواقف السيارات العامّة . كان هنالك فصل خامس ينتظر الدبلوماسي البريطاني الشاب والطالبة الروسية الغريرة : فصل طويل حزين .

اتفق « آلفرد» و «كلارا » وهما يتناولان القهوة على موعد يلتقيان فيه مساء غد ، ثم تتابعت المواعيد واللقاءات بينهما بعد ذلك فلم تنقطع .

وبعد شهرين اتفقا على الزواج .

وجرت المراسم باحتفال مدني في قاعة مكتب الزواج السوفيتي المظلمة ، ثم باحتفال ديني أنيق في كنيسة سنت لويس الكاثوليكية . وأعقبت ذلك حفلة صاخبة في دار « كلارا » حضرها أصدقاء « آلفرد » المقرّبون وزملاؤه في السفارة ، وأهل « كلارا » وصديقاتها . ويتذكر « آلفرد » الحفلة فيصفها قائلاً : « كانت فيها كمّيات هائلة من الفودكا .. وساد البريطانيين والروس جوّ عاطفي ، وأخذوا — بعد أن لعبت الفودكا بعقولهم — يغنّون ويتعانقون ويقسمون أغلظ الأيمان على الصداقة الأزلية بين الانكليز والروس » .

وبعد أقل من سنة نقل « آلفرد هول » إلى لندن ، وودّعته زوجته

« كلارا » في مطار موسكو على أن تلتحق به . بعد أيام ، حين يتم اصدار جواز سفرها ، وتحصل على سمة الخروج .

وكان الاتحاد السوفيتي في سنة ١٩٤٥ ، وقد خرج من الحرب أخيراً ، لا يزال في نشوة النصر ، وستالين في أوج قوته . وكانت سياسة ستالين الخارجية في تلك الفترة ، بعيدة عن فكرة التعايش السلمي . تدّعي بأن الحرب لا محالة ناشبة بين المعسكرين الشيوعي والرأسمالي . وأن الحرب الأخيرة لم تقض على أنظمة الدول المعادية للاتحاد السوفيتي ، كألمانيا وايطاليا واليابان فقط ، بل انها زعزعت أنظمة تلك التي كانت حليفاته أيضاً – أمريكا وبريطانيا والدول الرأسمالية الإخرى – وأن تلك الأنظمة تعاني أزمات خطيرة ، وتقف على شفا الانهيار . وكان من دعائم تلك السياسة ومقوماتها عزل الشعب السوفيتي عن العالم الخارجي بكل وسيلة ممكنة ، ولذلك فلم يسمح بدخول السيّاح الأجانب إلى الاتحاد السوفيتي ، ومنع المواطنون السوفييت من السفر إلى الخارج ، وحُرّمت المطبوعات والصحف الأجنبية . وحتى الاصغاء إلى الاذاعات الخارجية كان ممنوعاً ، وغير ممكن عملياً .

وكانت إحدى النتائج الفرعية التي ترتبت على هذه السياسة الانعزالية الصارمة ، عدم ارتياح الحكومة السوفيتية إلى زواج النساء السوفيتيات من أجانب ، وعدم السماح لهن بمغادرة البلاد مع أزواجهن . ولذلك رفضت السلطات أن تمنح « كلارا » سمة الخروج ، كما رفضت أن تمنحها قبلها لعدد من الفتيات الروسيات اللائي تزوّجن من أجانب .

وبدأت المشكلة .

وبعد أن مرّت على سفر « آلفرد دول » ستة شهور ، وضعت « كلارا » ولداً ، وهي وحيدة في موسكو ، فأسمته « نيقولاس » . وكان زوجها في حالة عصبية يائسة ، على صلة دائمة بها من لندن ، يحدثها بالتلفون ، ويبعث اليها بالبرقيات والرسائل ، بينما كانت الشهور تتعاقب . وكان يقول دائماً : « إن الوقوع بين شقي الرحى

في حرب باردة ليس أمراً مسلياً » .

وأخذ « هول » يمطر المسؤولين في الحكومة البريطانية بعرائضه وطلباته التي يستدرّ فيها عطفهم ، ويتوسل اليهم أن يعيدوه إلى عمله في موسكو . أو يضغطوا على الحكومة السوفييتية لتفرج عن زوجته وتابعها لتلحق به . على أن وزارة الخارجية البريطانية لا ترتاح عادة لهذا النوع من القضايا ، وترى أن صغار الموظفين يجب أن ينصرفوا إلى واجباتهم ويبتعدوا عن المشاكل . وكانت نتيجة الضجة التي أثارها « هول » والحاحه المستمر ، أن نقلت خدماته من وزارة الخارجية إلى وزارة علاقات الكومنولث ، فعين في المكتب الصحفي البريطاني في اوتاوا ، وهو مكتب ملحق بدائرة المندوب السامي البريطاني في كندا . ولكنه — بطبيعة الحال — لم ينقطع عن محاولاته ، ولم يكفّ عن إرسال عرائضه التي يلحّ فيها على حكومته بحماية زوجته ، وطفله ، ومساعدتهما في الالتحاق به .

وكان عدد الزوجات الروسيات المتزوجات من أجانب — غربيين — عند مغادرة «آلفرد هول » — موسكو أربعاً وثلاثين . فانخفض هذا العدد بعد مدة إلى زوجات ست ، وقد تمكن بعضهن أن يغادرن الاتحاد السوفيتي بطريقة ما ، وطلق عدد منهن أزواجهن ، وعدن فانصهرن في بوتقة حياتهن القديمة . وحاولت أخريات الانتحار ، وثلاث منهن اختفين نهائياً .

وأخذت الصحف البريطانية تثير موضوع الزوجات الروسيات ، وتتخذ من موقف الحكومة السوفييتية في منعهن من الالتحاق بأزواجهن وسيلة لمهاجمتها . وأصبحت هذه القضية مشكلة جديدة أضيفت إلى المشاكل القائمة بين الاتحاد السوفيتي والدول الغربية .

وكانت الحكومة البريطانية ، من وقت لآخر ، تقوم ببعض الاتصالات والمحاولات مع الحكومة السوفييتية ، عن طريق سفارتها في لندن . أو السفارة البريطانية في موسكو . وقام السفير البريطاني في موسكو . السر موريس بيترسن ، باتصالات عديدة مع وزارة الخارجية

السوفيتية ، يروي طرفاً منها في مذكراته المعنونة « جانبا الستار » ، وهو يقول فيها إنه لم يكن كبير العطف على أولئك المتزوجين من روسيات ولم يهمه كثيراً أن تضاف اولئك الزوجات إلى سكان المملكة المتحدة . غير أن بعض الحالات (ولعله يشير إلى حالة آلفرد هول) كانت مؤلمة حقاً ، ومبعث شقاء لكل الأطراف المعنية ، وأن موقف الحكومة السوفيتية كان قاسياً لا يطاق .

وقد اضطر السفير أخيراً أن يفاتح في الأمر وزير الخارجية – مولوتوف شخصياً . فقابله في ٣٠ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٦ ليضع هذه المشكلة الانسانية أمامه ، ويطلب تدخله لأنهائها . وهو يصف هذه المقابلة قائلاً :

« وقد امتعض مولوتوف لأنني أزعجته بأمر كان من الواضح أنه يعتبره قليل الأهمية ، فاضطررت أن أقول له إنني لم ارفع الأمر اليه الا لأنني أخفقت في الحصول على جواب شاف على أي مستوى آخر » .

وناقشه السفير في الأمر ، وقال له إذا كانت الحكومة السوفيتية لا تسمح للروسيات بالسفر للالتحاق بأزواجهن ، فلماذا لا تمنعهن من الزواج بالأجانب لتحول دون وقوع أمثال هذه المآسي ؟

كما أن السفير الفرنسي في موسكو ، الجنرال كاترو ، كان من جانبه يقوم باتصالات مماثلة بشأن زوجات الموظفين الفرنسيين . وقد اضطر هو أيضاً إلى طلب مقابلة وزير الخارجية ، وحين أظهر له مولوتوف الامتعاض نفسه ، استشهد كاترو بمثل فرنسي يقول : « إذا لم تنل بغيتك لدى الملائكة ، عليك أن تلجأ إلى الأله الطيب » . فبادر مولوتوف بالاجابة عن ذلك قائلاً :

« لا أعرف شيئاً عن الاله الطيب هذا ، ولا عن ملائكته .. »

ولم تسفر اتصالات السفيرين بوزير الخارجية عن أية نتيجة ، ولكنهما واصلا محاولاتهما مع المسؤولين الآخرين ، ومع فيشينسكي – نائب وزير الخارجية – بصورة خاصة . فلم يكن من الممكن زعزعة السوفييت عن موقفهم ، بالرغم من ضعف الحجج التي أبدوها ، ويقول السفير

بيترسن إنه طالما كانت اولئك النسوة على الأرض السوفيتية ، فلم يكن باستطاعتنا أن نقدّم لهن الآ مساعدة ضئيلة ، وطالما كانت جنسياتهن البريطانية غير معترف بها ، فلم نكن لنستطيع حمايتهن من الشرطة السوفيتية .

ويبدو أن الحاح « هول » وعدم انقطاعه عن شكاياته وطاباته كان له بعض الأثر على حكومته في الأقل ، اذ وافق البريطانيون على إعطاء زوجته عملاً في السفارة البريطانية بموسكو ، فعيّنوها عاملة لتلفون السفارة ، كما سمحوا لها بالسكن في مبنى السفارة مع طفلها . وبعد أن انتقلت « كلارا » إلى السفارة ، لم تخرج منها الآ في أندر الاحايين ، وللضرورات القصوى . وكانت تزجي وقتها في العناية بطفلها ، والكتابة إلى زوجها ، وقراءة الأدب الانكليزي .

وقد تبادل الزوجان خلال هذه المدة أكثر من أربعمئة رسالة ، وكان المستقبل يبدو لهما مظلماً بحيث أصبحت الكتابة شديدة الصعوبة ، ولم يكن هنالك ما يستطيعان الكتابة عنه ، فعمد الزوجان اليائسان في رسائلهما إلى تحليل الكتب التي تقرأها « كلارا » : مؤلفات شكسبير ، وديكنز ، وجاك لندن وغيرهم ..

وكانا يتحدّثان بالتلفون كلمّا استطاعا إلى ذلك سبيلاً ، اذ لم تكن أجور المحادثات التلفونية بين روسيا وكندا مما يستهان به . وأخذ « آلفرد » يلاحظ أن « كلارا » لكثرة ما تقرأ من كتب الأدب الانكليزي القديم ، أخذت تستعمل في حديثها كلمات مهجورة ، وعبارات لم تعد تشاهد الآ في الكتب القديمة .

ومضت سبعة أعوام . وكان الزوج المسكين لا يدع مناسبة الآ ويتصل بزوجته ، ويرسل الملابس والهدايا اليها وإلى ابنه الذي بلغ السابعة من عمره ، ولم ير أباه .

وفي ٥ «مارس» ١٩٥٣ توفّي ستالين .

وعندما أذيع هذا النبأ الذي اهتز له العالم من أقصاه إلى أقصاه ، تطلعّ الناس إلى ما ستتمخض عنه وفاته من تغييرات في الاتحاد السوفيتي

والموقف الدولي . وانتشرت الاشاعات والتكهنات .

ولم تكد الحكومة السوفيتية تفرغ من مراسم تشييعه ودفنه ، واختيار من يخلفه في مناصبه ، حتى ظهرت بوادر التغير في سياسة الاتحاد السوفيتي الداخلية والخارجية ، ولاحت في الأفق الدولي دلائل صغيرة تبشّر بأن التوتر قد تخفّ حدّته ، فقد تحرّكت قضية كوريا بعد طول تعثّر ، واتجهت إلى الحل السريع ، وبدرت من الحكومة السوفيتية مواقف جديدة في بعض القضايا ، فلفتت أنظار العالم وأشاعت جوّاً من التفاؤل . ففي كوريا أطلق سراح المحتجزين المدنيين من رعايا الدول الغربية ، بعد أن كانت الحكومة السوفيتية في السابق ترفض البحث في الموضوع قبل حل القضية الأصلية . وفي ألمانيا ، بعد أن وقعت حوادث متكررة في الجوّ ذهب ضحيتها كثير من الطيارين ، واتهمت موسكو الطائرات البريطانية بانتهاك حرمة أجواء المنطقة السوفياتية ، عاد القائد السوفيتي في المنطقة فأعرب عن أسفه لوقوع تلك الحوادث ، واقترح — خلافا للروتين القديم — عقد مؤتمر سوفيتي — بريطاني للحيلولة دون تكرر « سوء التفاهم » الذي أفضى إلى تلك الحوادث . وفي الأمم المتحدة ، بينما كانت المفاوضات حول تعيين سكرتير عام جديد لا تبشّر بأي أمل في النجاح ، وافق الوفد السوفيتي في ٣١ «مارس»، بصورة غير منتظرة، على انتخاب همرشولد . وفي موسكو ، رفع كثير من القيود التي كانت مفروضة على تنقلات الدبلوماسيين الأجانب ، وشوهد عدد كبير من المسؤولين السوفييت وأزواجهم — للمرة الأولى في السنوات التي أعقبت الحرب — في حفلة استقبال اقامتها السفارة الأمريكية .

وفي هذه الفترة ، ظهرت أمام « آلفرد هول » — وكان لا يزال في كندا — مفاجأة لم تكن في الحسبان . فقد وجد على مكتبه ، بعد أن عاد من تناول غدائه ذات يوم ، ورقة تركتها سكرتيرته ، تقول فيها إن السفارة السوفيتية اتصلت به خلال غيابه ، وانها ترجو أن يتصل بها حين عودته لأمر عاجل .

وهلع « دول » ودارت في ذهنه شتى الظنون . لماذا تريد السفارة السوفيتية أن يتصل بها ؟ هل حدث لزوجته حادث ، أو أصيب طفله بسوء ؟

ومع ذلك ، فلم يضع وقتاً . وحين اتصل بالسفارة ، قيل له إن الشعبة القنصلية ترجو حضوره لأمر يتعلق بزوجته ، ولما استفسر عن الأمر أجيب انه سيخبر به عند حضوره ، ولا يمكن بحث الموضوع بالتلفون ، فزاد قلقه .

وكان « دول » بعد أقل من نصف ساعة جالساً في غرفة القنصل السوفيتي ، الذي سلمه تصريحاً يطلب اليه فيه أن يقسم عليه أمام القنصل ، ثم يوقعه بحضوره ، يبدي فيه انه لا يزال راغباً في أن يعيش مع المواطنة السوفيتية « كلارا سترومينا » ، وانه قادر على إعالتها .

وفي ايلول (سبتمبر) ١٩٥٣ ، وبعد سبع سنوات من القلق واليأس والعذاب ، حصلت « كلارا » على سمة الخروج .

ورحبت الصحافة البريطانية بهذه البادرة السوفيتية الجديدة ، واعتبرتها عملاً ودياً آخر من سلسلة أعمالها ومواقفها التي تدل على رغبتها في السلام .

ولكن « آلفرد » و « كلارا » لم يلتفتا إلى مثل هذا الكلام ، فاتصلت « كلارا » بزوجها تلفونيا من موسكو قبيل سفرها ، وأخبرته بصوت يغمره فرح هستيري بأنها مسافرة بعد قليل .

وبانطلاق الطائرة التي أقلت « كلارا » و « نيقولاس » من مطار موسكو ، انتهى الفصل الخامس — والأخير — من الرواية التي بدأت في مسرح « البولشوي » قبل سبع سنوات .

الأفعى في الأمم المتحدة

أدّى تأسيس الأمم المتحدة في سنة ١٩٤٥ إلى ظهور دبلوماسية جديدة خاصّة بها ، لها أساليبها وفنونها ، ومداخلها ومخارجها . وقد ظهرت على مسرح هذه المنظمة الدولية الجديدة وجوه وشخصيات لها ملامحها المعروفة وصفاتها المميزة ونوادرها الطريفة .

ولا شك أن صلابة همرشولد ، واغماءات كريشنا منن ، وحذاء خروشوف ، وغير ذلك من الصـور والمشاهد التي لا تحصى ، لم تكن لتعرف وتنال شهرة عالمية لولا الأمم المتحدة ، ودبلوماسيتها الجديدة : دبلوماسية الخطب العلنية في القاعات ، والمناورات الخلفية في الممرات ، والمساومات النزيهة وغير النزيهة في الردهات .

ومن الشخصيات التي لا تنسى في الامم المتحـدة شخصية « آندريه فيشينسكي » وزير خارجية الاتحاد السوفيتي السابق الذي مثّل بلاده في المنظمة فترة طويلة (نائباً لوزير الخارجية ، ووزيراً ، وممثلاً دائماً) ، وكان فيشينسكي خطيباً بارزاً ، له مواقف مشهورة ، وخطب مجلجلة لا تزال أصداؤها ترّن في قاعات الامم المتحدة .

وكانت خطبة طويلة ، متدفقة ، عنيفة ، تحفل — على عادة الروس في احاديثهم وخطبهم — بالحكم والأمثال ، والقصص ذات المغازي القريبة والبعيدة ، عن الثعالب الماكرة ، والذئاب الشريرة ، والحملان البريئة ، والفضائل التي تنتصر في النهاية ، والشرور التي يكون مصيرها الخذلان . وكان فيشينسكي يستشهد بما يناسب المقام

منها كلما أراد أن يدافع عن رأي ، أو يعارض اقتراحاً ، أو يغمز مندوباً ..

وفي أحد اجتماعات الدورة الخامسة للأمم المتحدة (في نوفمبر ١٩٤٩) كان الممثل البريطاني « هكتور ماكنيل » — وزير الدولة لشؤون الخارجية — قد ضاق ذرعاً بهذه القصص والأمثال التي لم ينقطع فيشينسكي عن سردها خلال السنوات الأربع الماضية ، أي منذ تأسيس المنظمة . فقرر يوماً أن يتحدى أستاذ هذا الفن وينازله بسلاحه ، وأن يروي قصة تعمّد استعارتها من الأدب الروسي ، ليغمز بها فيشينسكي .

اختار « ماكنيل » إحدى أقاصيص « كريلوف » (١٧٦٨ — ١٨٤٤) ، وهو أديب روسي له أقاصيص شعرية كثيرة ، كتبها على لسان الطير والحيوان ، على غرار أقاصيص « لافونتين » ، فنالت في روسيا شهرة هائلة ، وانتشرت انتشاراً واسعاً ، حتى أصبحت من المأثورات الشعبية التي لا تزال تدور على الألسنة ، ويرويها الأطفال والكبار ، ويستشهدون بها في كل مناسبة ، وأحياناً بدون مناسبة ، كما يستشهدون بالحكم والأمثال .

قال « هكتور ماكنيل » :

« يحكى أنه كانت هنالك حيّة مسكينة . وكانت هذه الحية بائسة متألمة على الدوام لأن الجميع كانوا يخشونها ويهربون منها ، فاستنتجت أن مبعث خوفهم منها كان صوتها القبيح وفحيحها المزعج . فأخذت تتضرع إلى جوبيتر ، وتتوسل اليه أن يمنحها صوت عندليب . واستجاب إله الآلهة إلى ضراعتها ، فتسلّقت الحيّة شجرة ، وأخذت تغني أعذب الألحان ، بكل ما في صوت العندليب من سحر وفتنة .

« ولم يمض عليها وقت طويل ، حتى تجمّعت طيور الغاب جميعاً ، والتفّت حولها مسحورة ، ولم يجرؤ أحد ان يقترب منها كثيراً ..

فقالت الحية المسكينة ، في ألم وانزعاج :

« هل تكرهون صوتي ؟ »

فاجابها الزرزور :

« كلا . فانك تجيدين الغناء كالعندليب . ولكن لا بدّ أن اصارحك بأن الرعب ساور نفوسنا لما رأينا نابك وأنت تغنين..

« لقد تمتعنا بالاصغاء اليك . ولا نزال نتشوق الى المزيد . ولكننا نرجوك ثم نرجوك أن تغني وأنت بعيدة بعض الشيء ... »

واطرق فيشنسكي إذ سمع هذه القصة لحظة . وبدا للوهلة الأولى وكأنه تجرّع الهزيمة في ميدان لم يكن يشقّ له فيه غبار . ولكنه . بعد ساعات قلائل . نهض للكلام . فقال مخاطباً « ماكنيل » :

« كان الأجدر بك أن تقتصر على رواية الأساطير الانكليزية . فلعلّ محفوظاتك منها أوفى . لقد أخطأت إذ لم تدرس قصص كريلوف كلها . فان له أسطورة أخرى أكثر دلالة وأعمق مغزى . وهي « الأفعى والمفتري » سأرويها لك . ولكني لن أقول بمن تذكرني . ولك أن تفسّرها كما تشاء..

روى « كريلوف » أن « الأفعى » و « المفتري » اجتمعا يوماً . فاحتدم بينهما نقاش جدّي . أيهما يتقدّم على الآخر ويمرّ قبله . وادّعى كل منهما هذا الامتياز لنفسه . فاحتكما إلى ابليس ..

ونظر إبليس في النزاع . ثم قال للأفعى :

« أجل . أنت شريرة . ولدغتك قتالة . ولكن نابك لا يستطيع أن يؤذي أحداً من بعيد . كما يستطيع لسان « المفتري » . فهو أفتك من نابك . ولا نجاة منه ولا مهرب . ولو قامت دونه الجبال والمحيطات.. فمن الواضح إذن أنه يفوقك في الشر . وعليك أن تتنازلي له عن الأسبقية . وتفسحي له الطريق لكي يمرّ قبلك .

ومنذ ذلك الوقت كانت منزلة « المفترين » تفوق منزلة « الأفاعي » — « في الجحيم ! » .

وجلس فيشينسكي . بعد أن نجح في مواجهة التحدّي . وعليه سيماء الارتياح . وكأنه أزاح عن صدره عبئاً .

وانتهت الجولة . في المبارزة الدبلوماسية بالاسلوب الجديد . بتعادل الطرفين .

قرار الفصل

في ربيع سنة ١٩٤٥ كانت السلطات الأمريكية تتعقب صحفياً أمريكياً أثارت اتصالاته المريبة ، والمعلومات السرية التي نشرها ، شكوكها . وهو « فيليب جافي » رئيس تحرير مجلة (آميراسيا) المؤيدة للشيوعيين . وكانت قد نصبت في غرفته في فندق « ستاتلر هاتن » في واشنطن أجهزة سرّية تسجّل أحاديثه الخاصّة ومكالماته التلفونية ، تمهيداً للقبض عليه في قضية أصبحت من أشهر قضايا الجاسوسية في أمريكا .

وفي أحد الأيام زاره في غرفته موظف شاب في السلك الخارجي يدعى « جون ستيوارت سرفيس » كان قد نقل مؤخراً من الصين إلى ديوان وزارة الخارجية في واشنطن . وبالرغم من أنه لم يكن مقصوداً بالتحقيق فقد سجّلت الأجهزة حديثه مع جافي ، وبالتالي دخل في نطاق رقابة دوائر الأمن والتحقيقات الجنائية ، إذ تبين من الحديث المسجّل أن الدبلوماسي الشاب « سرفيس » قد أعار الصحفي « جافي » حزمة من تقارير وزارة الخارجية حول الصين ، بينها تقارير ختمت في أعلاها بعبارة « سرّي » و « سرّي للغاية » .

وفي أربع زيارات أخرى في غرفة الفندق نفسها تحدّث « سرفيس » إلى « جافي » بأسهاب عن سياسة الولايات المتحدة في الصين ، وحذّره مرّتين أن المعلومات التي يزوّده بها سرّية جداً ، دون أن يعلم أن كل كلمة يتفوّه بها كانت تسجّل ، وتذهب إلى دوائر الأمن المختصة .

وتوجد في وزارة الخارجية الأمريكية لجنة خاصة مهمتها التثبت من إخلاص موظفيها تدعى « لجنة الولاء » ، وتستعرض هذه اللجنة سنوياً إضبارات جميع الموظفين ، وتدرس ما يردها خلال السنة من دوائر الأمن والاستخبارات من تقارير ومعلومات تتعلق باتصالات الموظفين الدبلوماسيين وأمانتهم .

وقد ناقشت تلك اللجنة ست مرّات في السنوات الست التالية ، فيما إذا كانت إجتماعات « سرفيس » بالصحفي « جافي » في غرفته بالفندق ، وأحاديثه معه ، تكفي للطعن في ولائه للولايات المتحدة واعتباره مذنباً . وفي المرّة السادسة استُدعي « سرفيس » للمثول أمام اللجنة ، بينما كان في طريقه لتسلم منصبه قنصلا عاماً في كلكتا . وكان دفاع « سرفيس » أنه كان يعطي جافي « المعلومات نفسها التي قد يصرّح بها لأيّ صحفي مهما كانت نزعته » ، فأخذت اللجنة بدفاعه ، وأصدرت قرارها بأن الأدلة المتوافرة لا يمكن أن تعتبر سبباً كافياً لاتخاذ أية اجراءات انضباطيّة ضدّه ، وأن الشك يقطع باليقين ، وأن تبرئة مذنب ليست شيئاً مذكوراً — في عرف العدالة — بالقياس إلى إدانة بريء . وجاء في قرار اللجنة : « أن وزارة الخارجية لا يسعها أن تتخلى عن موظف خدمها سنوات طويلة ، وتدرّب على أعمالها ، وتدرّج فيها ، على أساس غلطة واحدة ، أو شكوك لم تثبت بالدليل القاطع » .

وفي كانون الأول سنة ١٩٥١ عرضت قضية « سرفيس » على « لجنة الولاء » التابعة « لمجلس الخدمة » ، وهي أعلى هيئة في الحكومة الأمريكية للنظر في « ولاء » الموظفين ، فقررت نقض قرار لجنة وزارة الخارجية ، وذهبت إلى أن هناك قدراً معقولاً من الشك في ولاء « سرفيس » وأوصت بفصله .

إن الأدلة المطروحة أمام كلتا اللجنتين كانت واحدة في جوهرها ، ولذلك كان نقض قرار لجنة وزارة الخارجية طعناً في سداد أحكامها بقدر ما هو طعن في ولاء « سرفيس » .

وقالت اللجنة العليا في نقضها : « ... إن سرفيس كان يعلم في بداية علاقته مع جافي أنه كان شخصاً مريباً جداً ، وأنه يساري متطرّف ، وان سرفيس قد تلقّى تحذيرات متكررة بشأن جافي . ومع ذلك فاننا لا نجد في أحاديثه في الفندق ما يدل على أي حذر من جانبه ، وأن جافي قلّما أخفق في الحصول على ما كان يطلبه من معلومات .. »

واستشهدت لجنة الولاء في مجلس الخدمة — من بين الأدلّة — برسالة بعث بها مراسل النيويورك تايمس في الصين ، بقصد الدفاع عن سرفيس ، ولكنها اتُخذت دليلاً عليه . فقد أبدى المراسل « أن سرفيس لم يسمح لي قط بأن أطلّع على الأمور السرية ، وكان دائماً شديد الحذر والتحفّظ في الشؤون التي يعدّها سرّية »

فقالت اللجنة العليا في قرارها : « .. لا حاجة للتعليق على هذا التناقض والتباين بين معاملته لجافي ، ومعاملته لبروكس آتكنسن — مراسل النيويورك تايمس — وان القول بأن طريقة تصرّف سرفيس لا تثير قدراً معقولاً من الشك في ولائه هو توسّع زائد في مفهوم الرأفة » .

وبعد ستّ سنوات من التحقيق الدقيق ، والنقاش الطويل ، والتردد الزائد ، واعطاء سرفيس كل فرصة للدفاع عن نفسه ، تقرر فصله من الوظيفة .وعندما أبلغه مساعد وزير الخارجية للشؤون الادارية « كارل هملساين » بالفصل ، كان تعليق سرفيس :

« إنها مفاجأة .. صدمة .. ظلم ! — فانني لست ، ولم أكن يوماً ، غير مخلص لبلادي » .

زرنيخ للسفيرة

في آذار سنة ١٩٥٣ قرر الرئيس الامريكي ايزنهاور ترشيح السيدة (كاير بوث لوس) سفيرة للولايات المتحدة في أمريكا تقديراً لجهودها في انتخابات الرئاسة التي أسفرت عن فوز الحزب الجمهوري وانتخابه رئيساً للجمهورية .

وكاير بوث لوس هي زوجة هنري لوس صاحب مجلتي (تايم) و(لايف) المشهورتين ، وأقوى رجال الصحافة الامريكية نفوذاً ، وهو زوجها الثاني بدأت حياتها كاتبة مسرحية ، ثم مارست التمثيل ، وعملت في الصحافة ، وانتمت إلى الحزب الجمهوري وأيدت ترشيح الجنرال ايزنهاور للرئاسة ، وقامت في المعركة الانتخابية بنشاط كبير كان له أثره في نجاحه . وبعد الانتخابات عرض عليها منصباً وزارياً ، فاعتذرت قائلة إن هناك من هو أكفأ منها وأقدر على القيام بذلك العمل ؛ فعرض عليها أن تكون سفيرة في روما ، فقبلت بعد تردد . وكان هذا الترشيح سابقة مهمة في تاريخ الدبلوماسية ، لأنها كانت أول أمرأة يعهد اليها بمثل هذه السفارة الكبرى .

وكانت الحكومة الايطالية ، والرأي العام الايطالي مترددين في كيفية تقبل فكرة ترشيح امرأة لتكون سفيرة لأمريكا في بلادهم. وكانت تعليقات الصحافة الايطالية تراوح بين التردد ، والتخوف ، والسخرية ، والتهجم العنيف على الولايات المتحدة ، واعتبار هذا الترشيح إهانة لايطاليا . وقد ظهرت على صفحاتها تصاوير كاريكاتورية متباينة في

زرنيخ للسفيرة

في آذار سنة ١٩٥٣ قرر الرئيس الامريكي ايزنهاور ترشيح السيدة (كلير بوث لوس) سفيرة للولايات المتحدة في أمريكا تقديراً لجهودها في انتخابات الرئاسة التي أسفرت عن فوز الحزب الجمهوري وانتخابه رئيساً للجمهورية .

وكلير بوث لوس هي زوجة هنري لوس صاحب مجلتي (تايم) و(لايف) المشهورتين ، وأقوى رجال الصحافة الامريكية نفوذاً ؛ وهو زوجها الثاني بدأت حياتها كاتبة مسرحية ، ثم مارست التمثيل ، وعملت في الصحافة ، وانتمت إلى الحزب الجمهوري وأيدت ترشيح الجنرال آيزنهاور للرئاسة ، وقامت في المعركة الانتخابية بنشاط كبير كان له أثره في نجاحه . وبعد الانتخابات عرض عليها منصباً وزارياً ، فاعتذرت قائلة إن هناك من هو أكفأ منها وأقدر على القيام بذلك العمل، فعرض عليها أن تكون سفيرة في روما ، فقبلت بعد تردد . وكان هذا الترشيح سابقة مهمة في تاريخ الدبلوماسية ، لأنها كانت أول أمرأة يعهد اليها بمثل هذه السفارة الكبرى .

وكانت الحكومة الايطالية ، والرأي العام الايطالي مترددين في كيفية تقبل فكرة ترشيح امرأة لتكون سفيرة لأمريكا في بلادهم. وكانت تعليقات الصحافة الايطالية تراوح بين التردد ، والتخوف ، والسخرية ، والتهجم العنيف على الولايات المتحدة ، واعتبار هذا الترشيح إهانة لايطاليا . وقد ظهرت على صفحاتها تصاوير كاريكاتورية متباينة في

مغازيها ، منها صورة للسفيرة الجديدة في هيئة (كليوباترا) وهي بين أحضان (مارك انطونيو) ، وقد كتبت تحتها عبارة : « سفيرة الولايات المتحدة الامريكية » . ومن أطرف ما نشرته أيضاً صورة للعلم الأمريكي مرفوعاً على بناية السفارة وقد طرزت حواشيه بـ (الدانتيل) .

وقضت السفيرة الجديدة ستة أسابيع في وزارة الخارجية تدرس شؤون ايطاليا السياسية والاقتصادية دراسة مركزة ، ثم توجهت إلى روما : فوصلتها وهي لا تزال موضوع خلاف بين الايطاليين ؛ وبقي الخلق يختصمون جرّاها دهراً . قال مراسل صحفي بريطاني : « اذا قالت السيدة لوس إن الجو يبدو وكأنه ينذر بالمطر ، فان كثيراً من الايطاليين سينكرون ذلك غاضبين ، وسيقول آخرون إنها يجب أن تكف عن التدخل في شؤوننا الجوية ، وستذهب أقلية لا بأس بها منهم إلى القول بانها يجب أن لا تكتفي بمجرد الكلام ، بل عليهاأن تحاول القيام بشيء لمعالجة الامر . »

ولكنها لم تكن — كما توقع الكثيرون — تلك الشقراء ، الحسناء ، الرقيقة التي سيكون همها الأول الظهور في المناسبات الاجتماعية بثوب جديد في كل مرة ، واجتذاب القلوب اليها ، وكأنها تقوم بأحد أدوارها المسرحية القديمة ، بل كانت امرأة جادة طموحة عملية اثبتت جدارة بنات جنسها بهذا المنصب الدقيق الشاق . وكان منهاجها اليومي يتضمن عشر ساعات من العمل المتواصل في المكتب ، ومناسبات اجتماعية متعددة في كل أمسية . وكان البريد يحمل اليها حوالي ألف رسالة في الشهر موجهة اليها شخصياً ، فلا تترك واحدة منها دون إجابة ، وكانت تملي اجوبتها بنفسها على سكرتيرتين في ساعات متأخرة من الليل ، وهي غاطسة في حمّامها بعد يوم حافل بالعمل الشاق والنشاط الاجتماعي المرهق . ومع ذلك فلم تهمل اناقتها . ولم تتأخر عن موعد الدوام صباحاً مهما كان منهاج الأمس مرهقاً ، أو سهرة الليلة الماضية متأخرة . ولم يكن راتبها ليغطي أكثر من ثلث النفقات التي تتطلبها واجباتها .

ولكن حياة (كلير بوث لوس) في روما اكتنفتها حادثة غريبة

يعمل لحسابها ؟ وان لم يكن الامر كذلك ، فمن أين جاء هذا الزرنيخ ؟
ووجدت السفيرة نفسها أمام مشكلة عويصة . فاذا عُرف مرضها فان أخباره ستحدث ضجة كبرى في الصحف ، وستؤدي إلى تأويلات وتقوّلات تحرجها شخصياً كما تحرج الحكومتين الايطالية والامريكية . ولذلك تقرر إحاطة الموضوع بالكتمان التام . واتخاذ جميع الاحتياطات للحيلولة دون تسربه إلى الصحف . ومن جهة اخرى بدأت اجهزة الاستخبارات الامريكية والسفارة عملها بهدوء . فأجري تحقيق اولي عاجل مع جميع المستخدمين الايطاليين والامريكيين في دار السفارة ، فلم يظهر بين من يتصلون بالسفيرة منهم أحد يشك فيه .

وظهرت خلال اسبوع من التحقيق المستمر مجموعة من الأدلة المتفرقة التي وجّهت الانظار اخيراً إلى غرفة نوم السفيرة ذات السقف المنقوش بالأزهار البارزة . فقد كانت غرف الخدم في الطابق العلوي من مسكن السفيرة تقع فوق غرفة نومها مباشرة . وقد سبق للسفيرة أن لاحظت وقع الخطوات الثقيلة في غرف الخدم يهز نقوش السقف أحياناً .

ونقطة شاردة أخرى : ان القهوة التي تتناولها كل صباح مع فطورها كان مذاقها مرّاً وفيه طعم معدني . وقد اقتنعت السفيرة أنه ليس هنالك ايطالي يجيد صنع القهوة الأمريكية ، فوضعت في غرفتها جهازاً كهربائياً صغيراً تصنع عليه قهوتها بنفسها .

ونقطة أخرى : إن حالتها تسوء اكثر ما تسوء في الصباح ، وتكون الأعراض اكثر حدّة عند نهوضها من سريرها .

وأحد الخيوط أيضاً : كان للسفيرة في غرفتها (غرامافون) صغير ، أخذ يتكرر عطبه ، وحين أرسل إلى التصليح ذكر الشخص الذي اصلحه ونظفه أن أجهزته كان يعرقل عملها غبار أبيض ، وذرات من الصبغ ..

وانصرف رجال التحقيق إلى العمل في غرفة النوم ، فعثروا على كميات أخرى من الغبار الابيض المتراكم في طيات الستائر ، وعلى

أدوات الزينة . وبين فجوات الاثاث وشقوقها . وأظهرت الفحوص العاجلة التي أجريت وجود نسبة عالية من الزرنيخ في ذلك الغبار الأبيض . وهكذا ظهر أن مصدر « غبار الموت » المتساقط هو الزهور المجسمة في السقف .

واكتشف أحد الخبراء . فوق ذلك . أن الطلاء المحتوي على الزرنيخ ينفث بسبب رطوبة جو روما – أبخرة تملأ جو الغرفة ليلاً .
والنتيجة : إن السفيرة كانت ، خلال الشهور العشرين الاخيرة ، تستنشق أبخرة تحتوي على مواد سامة ، وتتناول طعامها وتشرب قهوتها يوماً بعد يوم ممزوجين بذلك الغبار الأبيض السام المتساقط من الاصباغ التي طليت بها نقوش السقف .

حافظ الجميع على سرّ السفيرة بحرص زائد ، ولكن مثل هذه الحادثة الغريبة لا يمكن اخفاؤها مدة طويلة ، فلم تمر عليها بضعة شهور الا وأخبرها اصدقاؤها أنهم سمعوا جوانب منها في دعوة عشاء في فرجينيا ، وفي حفلة كوكتيل في كونيتيكت ، وفي قاعدة جوية في تكساس .

ولم يصعب بعد اكتشاف السبب معالجة السفيرة من آثار التسمم ، وقضت بعد علاجها فترة استجمام في نزهة بحرية في البحر المتوسط .

أما غرفة النوم المخيفة ، فقد أعيد طلاؤها باصباغ لا تحتوي على أي زرنيخ وعادت السفيرة إلى (فيلا تافرنا) وإلى واجبات السفارة التي طالما وصفتها قائلة :
« أنها ليست فراشاً من الزهور . »

خطبة الوداع

كان « ريموند هير » من خبراء وزارة الخارجية الأمريكية في شؤون الشرق الأوسط . عرفته في (جدّة) سنة ١٩٥٢ ، وكان سفيراً للولايات المتحدة فيها ، وعميداً للهيئة الدبلوماسية . وكنت قد قدمتها من القاهرة . وكان لقاؤنا الأول في الزيارة التقليدية التي قمت بها لرؤساء البعثات الدبلوماسية . فوجدته رقيق الحاشية قليل الكلام عميق الغور . سألني عن الحياة في القاهرة وأخبرني أنه كان نائب قنصل فيها قبل اكثر من عشرين عاماً . وبعد بضعة أيام تعرّفت على زوجه في إحدى الحفلات فكان موضوع حديثنا الحياة في القاهرة أيضاً ، وقد أخبرتني أن أمنيتها ، وأمنية زوجها كذلك ، هي أن ينقلا اليها يوماً .

وفي تموز سنة ١٩٥٣ نقل السفير « هير » إلى بيروت ، حيث بقي سنة ونصف سنة، عاد بعدها إلى واشنطن. وفي آب سنة ١٩٥٦ تحققت أمنيته القديمة فعين سفيراً لبلاده في القاهرة .

وكان وزير الخارجية الامريكية في ذلك الوقت (جون فوستر دالاس) يزيد الحرب « الباردة » ضراماً ، ويهاجم فكرة الحياد ، ويصفها باللاأخلاقية ، متجاهلاً ما في الانحياز من معاني التبعية ، وما يستتبعه من تأييد جانب واحد « وإن أساء وإن ظلم » كما يقول البحتري .

وفي إحدى مقابلات السفير (ريموند هير » مع الرئيس (جمال عبد الناصر) في القاهرة ، القى الرئيس على السفير وعلى وزير خارجيته درساً بليغاً في موضوع « عدم الانحياز » .

كانت المقابلة قد قاربت نهايتها ، وانتهى البحث في كل الموضوعات التي كان مقرراً أن تبحث ، وبدأ السفير يتأهب للقيام ، فقال الرئيس جمال عبد الناصر للسفير إن لديه طلباً صغيراً . فأجابه السفير أنه سيكون سعيداً بتلبيه أي طاب للسيد الرئيس اذا كان ذلك في مقدوره . فقال الرئيس :

« هل تستطيع أن تحصل لي على نص آخر خطاب القاه جورج واشنطن ؟ » .

فزال قلق السفير لان الطلب كان يسيراً ، وأجاب :

« تقصدون خطبة الوداع . إننا نطلق عليها في تاريخنا الوطني هذا الاسم ، ليس فقط لأنها كانت آخر خطبة القاها بطل الاستقلال الامريكي ، بل لأنه ضمنها زبدة نصائحه للشعب الامريكي أيضاً » .

فقال الرئيس جمال عبد الناصر :

« أجل .. تلك هي الخطبة التي أريدها » .

فأجاب السفير :

« سأبحث عنها في مكتبة السفارة ، وان لم أجدها فيها ، فسأطلبها لسيادتكم من واشنطن ، واجلبها معي في مقابلتنا القادمة ، الا إذا كنتم تريدونها قبل ذلك »

وقال الرئيس إن الأمر ليس عاجلاً إلى هذه الدرجة .

وانتهت المقابلة ، ومرّت ايام تمكن السفير خلالها من الحصول على الخطبة . ثم جدّت أمور تستدعي أن يطلب السفير الامريكي موعداً لمقابلة رئيس الجمهورية بناء على تعايمات تلقاها من واشنطن ، فأخذ معه خطبة جورج واشنطن التاريخية : خطبة الوداع ، وفي أثناء المقابلة قدّمها إلى الرئيس قائلاً :

« سيادة الرئيس ، هذه هي الخطبة التي طلبتم نصها في المرة الماضية ، ويسرني أن اقدمها إلى سيادتكم » .

وعندما هم الرئيس بتناولها ، استطرد السفير باسماً :

« هل يأذن لي السيد الرئيس أن أجرّب قدرتي على الاستنتاج ،

اذ أحسب انني استطعت أن أحزر لماذا طابتم هذه الخطبة . »

وقلّب السفير صفحات الخطبة، حتى وصل إلى سطور منها كان قد وضع تحتها خطاً باهتاً بالقلم الرصاص ، وقال : « أظنها بالتحديد هذه الفقرة .. فهل أصبت أم أخطأت؟ » .

فقال الرئيس جمال عبد الناصر ضاحكاً : « بل أصبت .. هذه فعلاً هي الفقرة التي كنت أريد نصّها » .

وكانت الفقرة تتألف من سبعة أسطر أو ثمانية ، موجهة إلى الشعب الامريكي ، في آخر خطبة ألقاها عايه الزعيم الذي قاد معركة الاستقلال الامريكي .

وفيها يقول جورج واشنطن :

« إن القاعدة الاساسية التي تتبعها الولايات المتحدة الامريكية إزاء الدول الاجنبية يجب أن تكون كما يأتي :

« توسع بقدر الامكان في علاقاتنا التجارية معها — وتحفّظ بقدر الامكان في علاقاتنا السياسية .

« تجارة من غير ما حدود ، وسياسة في أضيق الحدود .

« لا بد أن نعرف أن اوربا لها مجموعة من المصالح الأزلية لا علاقة لنا بها مطلقاً ، أو لنا بها علاقة بعيدة .

« إن أوربا كانت دائماً ، وستبقى ، مسرحاً لحزازات متكررة لا تعنينا بحال من الأحوال .

« إن الأسباب المختلفة لهذه الحزازات غريبة عنا تماماً ، ومن ثم فليس من الحكمة أن نورّط انفسنا بروابط مصطنعة تجرّنا معها في تيار من التقلبات السياسية لا شأن لنا بها ، ومن ثم تشركنا في عداوات ليس لها من وجهة نظرنا ما يبررها » .

ألقى جورج واشنطن هذا الخطاب عندما كان الشعب الأمريكي خارجاً لتوّه من حرب الاستقلال ، والقوات الأجنبية قد جلت عن أراضيها حديثاً . وكانت الدول الكبرى في ذلك الوقت (وهي بريطانية وفرنسة والنمسا) في غمرة حرب باردة ، وكانت الحكومة الامريكية ،

بلسان منشئيها ، تنظر إلى هذه الحرب بعين الارتياب ، وتخشى منه على استقلالها .

فما أشبه هذه الظروف التي كانت مصر والبلاد العربية تجتازها في تلك الأيام .

كانت مصر قد نجحت في ثورتها قبل مدة قصيرة ، والقوات الأجنبية قد جلت عن أراضيها مؤخراً ، وكانت الدول الكبرى في غمرة حرب باردة مخيفة لا ناقة للدول العربية فيها ولا جمل .

وبينما نادى جورج واشنطن بالعزلة الكاملة في ظروف أمريكا التي كانت مشابهة لظروف البلاد العربية ، فان زعماء العرب المتحررين نادوا بما هو أخفّ من العزلة ، لأن تطور الاوضاع الدولية وظروف التقدم الانساني لم تعد تسمح بالعزلة ، وتبنّوا سياسة عدم الانحياز التي وصفها وزير خارجية أمريكا (دالاس) باللاأخلاقية ، لانها رفضت الانحياز لجانب واحد ، وأرادت ان تقول للمحسن أحسنت ، وللمسيء أسأت .

وقال الرئيس جمال عبد الناصر للسفير : « لعلك فهمت قصدي من طلب نص هذه الخطبة ، وأرجو أن تبعث بنسخة منها إلى مستر دالاس ليطلع عليها إن فاتته ، وليتذكرها إن كان قد نسيها .. فان ظروفنا الآن تشابه ظروفكم بعد جلاء قوات الاحتلال وتحقيق الاستقلال ، فاذا لم تستطيعوا فهم موقفنا على ضوء التاريخ العربي ، فحاولوا أن تفهموه على ضوء التاريخ الامريكي » .

قرأت هذه الحادثة الطريفة في بعض صحف القاهرة التي ذكرتها في وقتها ، ولأمر ما علقت بذهني ، فكنت أتذكرها كلما ذكر عدم الانحياز ووصف دالاس له .

ومرّت أعوام ، وشاءت الظروف أن أذهب إلى واشنطن ممثلاً للجمهورية العراقية بعد خروج العراق من (ميثاق بغداد) وتحوّل سياسته الخارجية من الانحياز إلى عدم الانحياز .

وعندما قمت بزيارة موظفي وزارة الخارجية الامريكية كان أول

من ينتظرني منهم (ريموند هير) ، السفير السابق في جدّة والقاهرة ، وكان في ذلك الوقت في منصب (مساعد وزير الخارجية للشؤون السياسية) .

ورّحب بي المستر هير في مكتبه الفخم ، وبعد أن استعدنا بعض ذكريات جدّة ، اتخذ سمة الجدّ ، وسألني : « ما هي سياستكم الخارجية الآن ؟ » .

فقلت له : « إننا أخذنا بنصيحة جورج واشنطن في خطبة الوداع » .

على شاطىء النيل

شاهد المارّة في أحد شوارع القاهرة المحاذية للنيل ذات صباح من ربيع سنة ١٩٥٧ رجلاً وسيماً مديد القامة وخط الشيب فوديه على حافة السطح من عمارة ذات ثمانية طوابق ، وهو يروح ويغدو ، وينحني وينهض ، في حركات عصبيّة ظاهرة دون أن يبدو عليه اكتراث لخطورة موقفه او ارتفاع البناية .. وسرعان ما تجمع المارّة يتطلعون اليه حائرين لا يعرفون ماذا يصنع ، فسادهم الهلع والارتباك ، لأنّ زلّة بسيطة ستهوي به دون أن يكون له ثمّة سند أو ممسك ، وأخذ بعضهم ينادي بأعلى صوته :

« حاسب يا خواجه » !

ولم يكن أولئك المارّة المتجمهرون ليعرفوا أن «الخواجه» الواقف على حافة السطح تلك الوقفة المخيفة هو سفير كندا في القاهرة «هربرت نورمان » .

وكان « نورمان » يمثل بلاده في القاهرة منذ ثمانية أشهر حفلت بالعمل المضني ، حيث كانت أزمة السويس تجتاز مرحلة من أشد مراحلها توتراً، وكانت حكومته تقوم بدور مهم لايجاد تسوية للأزمة، وقد أرسلت قوات الطوارىء الدولية إلى السويس بناء على اقتراح تقدمت به كندا ، وبالاضافة إلى ذلك كان نورمان قد أعتمد وزيراً مفوضاً لبلاده في لبنان ، كما عهدت اليه رعاية المصالح الاوسترالية ، بعد أنقطعت العلاقات الدبلوماسية بين مصر واوستراليا .

وكان « هربرت نورمان » من أكثر سفراء كندا كفاية وخبرة . وممن يتمتعون بثقة وزارة الخارجية الكندية وتقديرها، فضلاً عن احترام الدول التي اعتمد لديها . ولد في اليابان لأبوين كنديين مبشرين ، ودرس في جامعة كولومبيا في نيويورك وتخصص في التاريخ الياباني والثقافة اليابانية . وأصبح قبل أن يتجاوز الثلاثين من عمره من خبراء العالم المرموقين في الدراسات اليابانية . وفي سنة ١٩٣٩ عين في وزارة الخارجية الكندية ، ثم نقل في السنة التالية إلى سفارة بلاده في طوكيو ، قبيل دخول اليابان الحرب العالمية إلى جانب دول المحور ، ولا شك أن طوكيو كانت أفضل مكان يمكن الاستفادة من خبرته فيه ، لمعرفته لغة البلاد ، وتخصصه في تاريخها وثقافتها .

ولما ضربت اليابان الولايات المتحدة ضربتها المفاجئة في « بيرل هاربر » اعتقلت السلطات اليابانية « نورمان » فيمن اعتقلت من رعايا الحلفاء ، ولكنها سلمته إلى بلاده في السنة التالية . حيث قضى سني الحرب في إحدى دوائر وزارة الخارجية في اوتاوا . ولم تحل سنة ١٩٥١ الا وكان « هربرت نورمان » قد تدرّج في السلك الدبلوماسي حتى أصبح نائباً للممثل الدائم في الأمم المتحدة بدرجة سفير .

وفي هذه الفترة كانت الولايات المتحدة تجتاز عهداً من الارهاب والبلبلة أثارتهما حملات السناتور « مكارثي » المحمومة ، واطلاقه تهم « الشيوعية » و « التآمر » و « الجاسوسية » و « عدم الولاء » يميناً وشمالاً ، على موظفي وزارة الخارجية الأمريكية ، وعلى كبار المسؤولين في الحكومة ، وعلى رجال الاعمال والصحفيين ، مستنداً إلى أوهى الأدلة وأبسط الشكوك وأسخف القرائن ، مما اضطرّ لجنة الأمن الداخلي في مجلس الشيوخ الامريـــكي إلى فتح تحقيقات واسعة عرفت بـ « تحقيقات مكارثي » ، وأصبحت « المكارثية » رمزاً للارهاب الذي عاشت فيه الولايات المتحدة سنوات عديدة ، وكان ورود اسم أي مواطن في احد التحقيقات ، ولو بطريقة عارضة ، ومهما كان مركزه ومنصبه ، سبباً كافياً لجلبه إلى التحقيق والتشهير به وربما عزله

عن عمله . وقد امتدت اتهامات « مكارثي » وتحقيقاته أحياناً إلى أشخاص من غير رعايا الولايات المتحدة ، ممن كانت أسماؤهم ترد في إفادات المتهمين أو شهادات الشهود ، وخاصة اذا كانوا في مراكز حساسة من أجهزة الدول المجاورة للولايات المتحدة أو المتحالفة معها .

وفي إحدى جلسات اللجنة الفرعية للأمن الداخلي في مجلس الشيوخ الامريكي قفز اسم الدبلوماسي الكندي « هربرت نورمان » حين أفاد أحد الشهود أنّه شيوعي قديم .

أما الشاهد فكان شخصاً يدعى « كارل ويتفوغل » ، وهو من أصل الماني ، وشيوعي سابق باعترافه ، مارس تدريس التاريخ الصيني في جامعة كولومبيا زمناً ، وكان في ذلك الوقت يساهم في تحرير مجلة « نيو ليدر » . وقد أفاد « ويتفوغل » ان « نورمان » ، زميله في جامعة كولومبيا في سنة ١٩٣٨ ، كان يتردد معه على جمعية « تثقيفية » شيوعية في « كيب كود » وأنه يعرفه شيوعياً عريقاً منذ ثمانية عشر عاماً .

وما إن ذاعت أنباء هذه التهمة التي وجهت إلى « نورمان » في مجلس الشيوخ الأمريكي حتى اهتمت وزارة الخارجية الكندية للأمر ، وأعلنت أن « نورمان » لم يذهب إلى « كيب كود » قط . وصرح وزير الخارجية « لستر بيرسن » في مؤتمر صحفي له أنه بعث إلى واشنطن رسالة يعرب فيها عن « أسفه وانزعاجه لزجّ اسم نورمان في تحقيقات مجلس الشيوخ على أساس تهمة واهية باطلة صدرت عن شيوعي سابق وأضاف « بيرسن » أن السلطات الكندية قد أجرت تحقيقين دقيقين فيما أسند إلى المستر نورمان« وقد ثبتت بنتيجتهما طهارة ذيله وبراءته مما نسب اليه ، وأنه لذلك لا يزال موظفاً يتمتع بثقة وزارة الخارجية واعتزازها » .

وبالرغم من أن الأدلة والشهادات التي استندت اليها السلطات الكندية في تحقيقاتها لم تعلن ، فان وزير الخارجية أراد أن يؤكد أقواله في تبرئة ساحة « نورمان » بصورة فعالة ، فاختاره لمهمة جديدة ، ذات مسؤولية أكبر ، وعيّنه مستشاراً للوفد الكندي المفاوض في معاهدة

الصلح مع اليابان . وبعد أن انتهى من مهمته مع الوفد ، عينّ مندوباً سامياً في « نيوزيلندة » [1] ، وفي آب من سنة ١٩٥٦ سُمّي سفيراً لبلاده في مصر .

ولأمر ما ، أثيرت في واشنطن التهمة القديمة التي وجهت إلى نورمان قبل خمس سنوات مرّة أخرى بعد أن حسب أمرها منتهياً ، ونسيها الناس أو كادوا . ولعلّ للأوساط الصهيونية في الولايات المتحدة يداً في الأمر ، اذ أزعجها موقف نورمان المحايد من أزمة السويس ، وجهوده في ايجاد حلّ عادل وشريف لها ، فسخرت من « ينبش » اضبارته القديمة ، وأثارت موضوعه في لجنة الأمن الداخلي لمجلس الشيوخ الأمريكي من جديد ، بقصد التشهير به . وقد استدعت اللجنة القائم بأعمال السفارة الامريكية في بيروت « جون أمرسن » للمثول أمامها ، واستفسرت منه عن « نورمان » سفير كندا في القاهرة ووزيرها المفوض في بيروت ، وعمّا نسب اليه في سنة ١٩٥١ .

وكان « جون أمرسن » على معرفة قديمة بالسفير « نورمان » ، وقد صادف أن جمعهما العمل في طوكيو ، قبل أن يلتقيا مرة أخرى في الشرق الأوسط . فأفاد أمام لجنة مجلس الشيوخ أن معرفته بالسفير الكندي قديمة ووثيقة ، وأنه ليس لديه ما يحمله على الظن بأن « نورمان » شيوعيّ أو كان شيوعياً في أي وقت من الأوقات ، وكانت محاضر معظم التحقيقات في لجنة الأمن الداخلي تنشر عقب الانتهاء منها ، فلما عُلم أن اللجنة أجرت تحقيقاً جديداً في موضوع السفير نورمان ونشرت إفادة القائم بالاعمال الامريكي في بيروت أمامها ، ثارت موجة من الاستياء في كندا ، وأخذت الصحف الكندية تهاجم الولايات المتحدة لتدخلها في شؤونها وكأنها تريد أن تجعل من كندا الولاية الخمسين من ولاياتها التي كان عددها يومذاك تسعاً وأربعين . وأرسل وزير الخارجية « بيرسن » احتجاجاً جديداً إلى واشنطن ، كما اكدّ في مجلس

---

(١) تتبادل دول الكومنولث البريطاني فيما بينها المندوبين السامين بدل السفراء .

العموم الكندي ثقته التامة في ولاء نورمان . فتنصّلت وزارة الخارجية الأمريكية عن أية مسؤولية في موضوع « نورمان » وأعلنت ان ما أسند اليه لا يمثل رأي الحكومة الامريكية ، وانما هي تحقيقات ارتأت القيام بها إحدى لجان مجلس الشيوخ ، وليس لوزارة الخارجية أن تتدخل في أعمالها .

وأبرق « هربرت نورمان » من القاهرة إلى وزيره يشكره على موقفه منه وتأييده اياه . ولكن الأمر لم يكن سحابة عابرة في هذه المرّة ، وكان أثره في نفس نورمان قد تعاظم كثيراً .

أخذ « نورمان » بعد هذا ، يقضي ساعات طويلة في مكتبه وهو يكتب ويكتب .. ثم يستدعي خادمه النوبيّ « محمود داوود » ويطلب اليه أن يحرق أمامه الأوراق التي حبّرها ، والتي لم يعرف أحد ماذا كتب فيها . كما أنه أخذ يكثر من الشراب .

وفي إحدى ليالي نيسان سنة ١٩٥٧ عاد « نورمان » إلى الدار بعد أن شاهد مع صديق مصريّ له فلما يابانيا . ودخل مكتبته الواسعة ، فأضاء فيها نوراً خافتاً . وكان البيت ساكناً لا حراك فيه . وأدار لنفسه عدة كؤوس من الوسكي الصرف ، بينما كانت زوجته نائمة في غرفتها .

وفي صباح اليوم التالي غادر الدار من غير أن يوقظ زوجته ، وكان بادي الارهاق ، مستطاراً ، ساهماً ، فسار ببطء نحو عمارة قريبة تشرف طوابقها الثمانية على النيل ، وبعد لحظات ظهر على حافة سطحها ، غير ملتفت إلى المارّة الذين أفزعهم منظره هناك ، فتجمعوا أمام البناء وجلين ، ولعله لم يسمعهم وهم يصرخون :

« حاسب يا خواجه ! »

نزع نورمان نظارته وساعته وانحنى فوضعهما على حافّة الجدار ، ونهض مولّياً ظهره جهة الشارع ، ثم سار إلى الوراء خطوات ثلاثا ، ولم يصدّق المتجمهرون أعينهم حين شاهدوه وهو يهوي من أعلى البناء الشامخ ، ليستقر على الرصيف جثة هامدة .

احتلّ خبر انتحار السفير الكندي « هربرت نورمان » الصفحات

الأولى من صحف العالم ، ومما زاد في الضجة التي أثارها ، وفي اهتمام العالم به ، ارتباط الحادث بتحقيقات « مكارثي » التي ضجّ منها الناس في الولايات المتحدة وخارجها. وأبنه « بيرسن » في مجلس العموم قائلاً :

« إن جميع أعماله كانت تدعم ثقتي فيه ، وتقوّي إعجابي به . إنه الأثر الذي تركه العمل المرهق ، والتوتر الشديد ، والشعور بالاضطهاد المتجدد ، في عقل حساس ، وجسم ليس بالقويّ .. وكان لا بدّ له أن ينتهي بانهيار عصبي » . ولكن بيرسن رفض أن يرسل إلى واشنطن احتجاجاً جديداً وقال : « لقد انتهى الأمر ، ولا فائدة من إثارة مشكلة دولية » .

وهاجم زعيم المحافظين « جون ديفينبيكر » الولايات المتحدة بسبب انتحار نورمان الذي عزاه إلى « النزعات الشريرة في نفوس القائمين بالتحقيق في الكونغرس «الأمريكي» . وصاح « ستيوارت » زعيم حزب اتحاد الكومنولث التعاوني أن نورمان كان ضحية الغدر والافتراء .

وحين نقلت جثة « نورمان » إلى داره ، وجدت في جيبه ورقتان صغيرتان ، كتب على إحداهما :

« ليس لي خيار . يجب أن اقتل نفسي ، لأنني أعيش بغير أمل ».

أمّا الأخرى ، فكان يخاطب فيها زوجته :

« إنني أقبّل قدميكِ ، واتوسّل اليكِ أن تصفحي عني لما أنا مقدم عليه » .

السفير المهرّب

في الساعة السابعة من صباح الأحد ٢ تشرين الأول سنة ١٩٦٠ ، وصل مطار « آيدلوايلد » الدولي في نيويورك السينيور « موريسيو روزال » سفير جمهورية غواتيمالا في بلجيكا وهولندة ، على متن إحدى الطائرات القادمة من أوربا . وكانت الشركة التي يسافر السيد السفير على طائرتها وضعت إلى جانب اسمه في قائمة المسافرين إشارة خاصّة تعارفت عليها شركات الطيران للدلالة على أن المسافر شخصية مهمّة ، وأنه يجب أن يستقبل بأكثر ما يمكن من المجاملة ، ويعامل معاملة خاصّة .

وكان استقبال السفير « روزال » والمعاملة التي عومل بها خاصة جداً .

فقد مرّ السفير من مكتب الجوازات دونما تأخير ، وأخرجت حقائبه من حوزة الكمارك في لحظات ، وحضر إلى المطار من أقلّ السفير بسيارته إلى فندق « بلازا » الذي سبق له أن حجز غرفة فيه . ومرّ كل شيء بسهولة تامّة ، وبدا كل شيء للسفير وكأنه طبيعي ، بينما كان الأمر في حقيقته على النقيض من ذلك ، وكان المطار غاصّاً برجال الأمن ، ووكلاء مكتب مكافحة المخدرات وادارة الكمارك ، يرقبون حركات السفير ، ويترصّدون سكناته ، ويتعقبون السيارة التي أقلّته إلى فندقه .

فقد وصلت إلى مكتب مكافحة المخدرات في واشنطن قبل مدّة

اشارة من ممثل المكتب في باريس عن عملية تهريب خطيرة لكمية كبيرة من المخدرات سيقوم بها أحد الدبلوماسيين . ولكن المعلومات المتوافرة عن هذه العملية كانت محدودة ، وهي لا تزيد عن أن شخصاً يدعى « ايتيين تارديني » يزعم أنه تاجر فرنسي ، كان يدبرّ شراء المورفين من أحد تجّار المخدرات في الشرق الأوسط ، ويحوّله إلى هيروين في مختبر سرّي في فرنسا ، ثم يبيعـــه في الأسواق الأمريكية . ولم يكن هذا الشخص يحمل بضاعته بنفسه ، وانما يعهد بحملها إلى غيره ، وهو في هذه المرة سيعهد بايصالها إلى دبلوماسي من الناطقين باحدى اللغتين الاسبانية أو البرتغالية . أما الوسيط بين المهرّب الفرنسي والتجار الأمريكيين فهو شاب يدعى « تشارلز بوربونيه » يعمل محاسباً أو أميناً للصندوق على طائرات احدى شركات الطيران الأمريكية . وكان مصدر هذه المعلومات تاجر مخدرات أبلغها إلى بعض الوكلاء في الشرق الأوسط بقصد الايقاع بتاجر آخر منافس له في هذه التجارة .

وكانت التحذيرات والوشايات التي تصل المكتب من ممثليه ووكلائه في أوربا وغيرها كثيرة ومتشابهة ، بل تكاد تكون رتيبة . ولكن مدير المكتب ، بما تكوّن لديه بنتيجة تجاربه من حسّ — شعر بأن في هذه القضية نكهة خاصة .

وكان لا بدّ لاجراءات مكتب المكافحة وتحقيقاتها أن تبدأ بالرحلة الجوية المنتظرة . فقضى أحد موظفي المكتب ثماني ساعات ينقّب في سجلات الخطوط الجوّية حتى عثر على مفتاح صغير للقضية . فقد رتّب التاجر الفرنسي المزعوم « تارديني » أن يسافر في عودته من نيويورك إلى باريس على طائرة واحدة مع شخص يدعى « روزال » ، وكانت شركة الطيران قد وضعت إزاء اسم « روزال » تلك العلامة التي توصي بالمعاملة الخاصّة . فاستفسر الموظف عن ذلك الشخص من يكون ؟ وتبين ، بعد بحث ، انه سفير غواتيمالا في بلجيكا وهولندة.

فهل يمكن أن يكون السفير « روزال » هو الدبلوماسي الذي سيحمل المخدرات ؟ وكيف يمكن التأكد من الأمر ؟ وما العمل لو

ظهر بعد اتخاذ بعض الاجراءات أن هذه الشبهة كانت خاطئة ؟

كان مدير مكتب المخدرات يعلم انها عملية دقيقة قد تثير ملابسات دولية ومشاكل دبلوماسية ، ولكنه كان يعلم أيضاً ان زملاءه في ادارة الكمارك منهمكون من جانبهم في التحقيق ، فلينتظر ، ولعلّهم يعثرون على قرينة ملموسة أو دليل قاطع . ولم يطل انتظاره ، فقد أسفرت عمليات التحقيق في سجلات الكمارك القديمة أن « موريسيو روزال » – وهو ابن سفير سابق ، وخريج السوربون في باريس – كان في سابق عهده متزوجاً من ابنة رئيس جمهورية هوندوراس ، وأنه مثّل تلك الجمهورية في بعثات دبلوماسية ، والقي القبض عليه في سنة ١٩٤١ وهو يهرّب عطوراً ومجوهرات تساوي قيمتها ٨٥ ألف دولار . وقد استطاع « روزال » أن ينجو بنفسه من الفضيحة في تلك المرّة ، فسوّيت القضية ، وحيل دون اعلان أمرها .

لم يكن « روزال » غريباً عن عالم التهريب اذن ، وقد أظهرت بعض التحقيقات التالية انه يجيد كلتا اللغتين الاسبانية والبرتغالية .

وبعد أن تمّ التوصّل إلى معرفة الدبلوماسي المفترض بصورة مبدئية ، اتجّه مكتب المخدرات إلى التحقيق عن الرجلين الآخرين ، وجمع كل شاردة وواردة عنهما . فظهر أن « تارديّي » الذي يتظاهر بأنه تاجر فرنسي ، قد صرّح لمفتشي الكمارك في سفرته الأخيرة إلى نيويورك بأنه يحمل معه انموذجاً لجهاز الكتروني ، ويأمل أن يتّفق على تصديره إلى الولايات المتحدة . وكان كل شيء في مظهره يدل على أنه رجل أعمال مترف ، سوى ما اكتشفه مندوب المكتب في باريس من أنه قضى فترة في السجن ، وأن له شريكاً واحداً على الاقل ممن يعملون في السوق السوداء .

ان هذه المعلومات التي تجمّعت لدى مكتب المخدرات كانت تلوّح بأن الاشارة التي وصلت من باريس قد تؤدي إلى اكتشاف خطير . ولكن لم يكن ثمّ ما يمكن عمله سوى انتظار الخطوة الاولى في مؤآمرة التهريب المفترضة وهي وصول المشتبه بهما : السفير الغواتيمالي روزال ،

والتاجر الفرنسي تارديتي . وخلال فترة الانتظار هذه أخذ المحققون يتحرّون عن الفنادق التي نزل فيها روزال وتارديتي في سفرتيهما السابقة إلى نيويورك . كما وجّه مكتب المخدرات استفساراً إلى وزارة الخارجية عن نوع الحصانات التي يتمتع بها السفير روزال في الولايات المتحدة ومداها .

وتلقّى مكتب المخدرات بعد أيام برقية من باريس تنبيء عن موعد وصول روزال وتارديتي . فتأهب للأمر رجال المكتب ووكلاؤه ، بالتعاون مع سلطات الكمارك ، وعقدوا اجتماعاً لوضع الخطّة وتوزيع الواجبات . فعهد إلى جماعة منهم بانتظار وصول المشتبه بهما في المطار ، وإلى أخرى بتعقبهما إلى الفندق وإلى جماعة ثالثة بنصب أجهزة الاصغاء والتسجيل في غرفتين مجاورتين لغرفتيهما في الفندق . وكان لا بدّ لمن يعهد اليهم بالاصغاء إلى محادثات الرجلين أن يعرفوا اللغة الفرنسية ؛ لأن « تارديتي » كان فرنسياً ، و « روزال » دبلوماسياً يجيد عدة لغات . وأغلب الظن أن الفرنسية ستكون لغة التخاطب بينهما . ولما كان الفندق الذي سينزل فيه الرجلان لا يزال مجهولاً ؛ فقد حجز رجال مكتب المخدرات — على سبيل الاحتياط — غرفة في كل فندق من الفنادق الخمسة التي سبق لهما أن نزلا فيها ؛ وغرفة أخرى ملاصقة لكل من الغرف الخمس ، لمراقبتهما والاصغاء إلى محادثاتهما منها. ومع ذلك فقد علم خلال الاتصال بالفنادق أن هناك غرفة حجزت باسم السفير روزال في فندق « بلازا » لليوم الثاني من تشرين الأول . أما تارديتي فقد وردت برقية لاحقة تنبيء بأنه سيسبق روزال بيوم واحد ، ولكن الفندق الذي سيحلّ فيه لم يكن معروفاً .

وفي اليوم المقرر لوصول « تارديتي » كان الموظفون والوكلاء مستعدين في المطار ، وقد ترادفوا من الباب الذي يدخل منه المسافرون بعد نزولهم من الطائرة ، حتى موقف سيارات التاكسي أمام الباب الذي يخرجون منه . وكان أحد موظفي مكتب المخدرات جالساً وراء عجلة القيادة في سيارة تاكسي تابعة للمكتب وهي من السيارات التي

أعدّت خصيصاً لتعقب المهرّبين ، تحمل اللون الموحد والعدّاد الخاص وسائر مواصفات سيارات التاكسي في مدينة نيويورك ، وبداخلها جهاز للاتصال اللاسلكي .

وأخيراً وصل « تارديتي » فتقدّم اليه في الباب الموظف الذي أحضر السيارة الخاصة ، وكان يرتدي ملابس سائقي التاكسي وقبعتهم الخاصة ، فتناول حقيبته ووضعها في السيارة ، واتجه به إلى فندق « شري نذر لاند » الذي طلب تارديتي ايصاله اليه . ولكنه قبيل وصول السيارة إلى قلب المدينة ، مال على السائق وأخبره انه عدل عن رأيه الأول . وانه سينزل في فندق « سافوي – هاتن » ، فاخذه اليه .

أما السفير « روزال » فكان موعد وصوله في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي . وكانت وزارة الخارجية خلال ذلك قد أبلغت مكتب المخدرات في واشنطن برأيها في حالة « روزال » . وجواز اتخاذ الاجراءات القانونية بحقّه ، في حالة القاء القبض عليه متلبساً بعملية التهريب ، على ضوء القواعد المرعيـــة فيما يتعلق بحصانات الممثلين الدبلوماسيين في دولة ثالثة غير دولتهم ، وغير الدول التي اعتمدوا لديها .

والقاعدة هي أن وصول الممثل الدبلوماسي إلى مقرّ عمله في الدولة التي يعتمد لديها ، أو عودته منها ، كثيراً ما يقتضي مروره باقاليم دولة أو عدة دول أخرى . وبالرغم من أن المبعوث الذي يمرّ في دولة غير معتمد لديها ليست له في مواجهة هذه الدولة الصفة الرسمية التي تخوّله التمتع بالحصاناتِ الدبلوماسية المتعارف عليها ، فان للمجموعة الدولية مصلحة مشتركة في أن تسير العلاقات الدبلوماسية بين أعضائها في يسر وسهولة . ولذلك فعلى كل دولة أن تساهم من جانبها بما يلزم لتيسير مهمة مبعوثي زميلاتها عند مرورهم عبر اقليمها في طريقهم إلى مقرّ عملهم ، أو في عودتهم إلى وطنهم ، وأن تمنحهم التسهيلات اللازمة لوصولهم إلى الجهة التي يقصدونها في غير عناء ولا عائق . ومعنى ذلك أن التزام الدولة الثالثة بمراعاة حرمة المبعوث الدبلوماسي

وحصانته يقتصر على ما هو ضروري لتمكينه من التوجّه إلى مقرّ عمله وعودته إلى وطنه ، وليس له الحق في أية معاملة خاصة او حصانات إذا وجد على إقليم الدولة الثالثة في غير تلك الظروف ، وفي غير عمل رسمي ، لتمضية اجازة مثلا ، أو للاستشفاء ، أو اقضاء شؤون شخصية .

وكان جواب وزارة الخارجية فيما يتعلق بحالة السفير « روزال » بهذا المآل ، وهو أنه طالما كان يقوم بسفرات بين أوربا ونيويورك دون أن يكون ماراً في طريقه إلى بلاده ، فانه لا يتمتع ، على إقليم الولايات المتحدة ، بأية حصانة دبلوماسية ، ولذلك فبامكان السلطات الأمريكية إتخاذ الاجراءات التي تفرضها قوانينها . ولكنها مع ذلك أوصت بأن من الافضل أن يكون هنالك قدر معقول من القرائن الدالة على عملية التهريب ، ووجود الأموال المهرّبة في حوزة السفير قبل الاقدام على أيّ إجراء بحقّه ، تفادياً لفضيحة دبلوماسية ، أو لأساءة محتومة إلى علاقات الولايات المتحدة بجمهورية غواتيمالا ، في حالة عدم ظهور ما يدين السفير المشتبه به .

وبعد هذه الفتوى من جانب وزارة الخارجية ، وفي فجر يوم ٢ تشرين الأول ، كان وكلاء مكتب المخدرات وادارة الكمارك — بعيون لا تزال عليها آثار النوم — قد حضروا مرّة أخرى إلى مطار نيويورك قبل موعد وصول أولى الطائرات القادمة من أوربا ، واستعدّ كل منهم للقيام بواجبه ، واستقبال السفير « روزال » استقبالا خاصاً . كما أن سيارة التاكسي الخاصة كانت جاهزة في المطار مع سائقها . ولمّا كانت صورة روزال غير معروفة لمستقبليه ، فقد وقف أحد رجال الكمارك في مكتب الجوازات ، ليشير الآخرين إلى صيدهم المرتقب حينما يشاهد جواز سفره .

وأخيراً وصلت طائرة السفير ، ، فنزل منها فيمن نزل ، وتقدّم إلى مكتب الجوازات (أو ما يعرف هناك بمكتب الهجرة) حتى اذا أبرز جوازه التفت الموظف الكمركي إلى جماعته ، فكانت الاشارة كافية .

بدا السفير روزال – وهو يخرج من مكتب الجوازات ويتجه إلى الحاجز الكمركي – رجلاً في أواخر العقد الخامس من عمره ، طويل القامة ، أنيق الملبس ، ولم يكن في مظهره ما يلفت النظر . وتوقّف في طريقه برهة ليولع سيكارة . ولمّا بلغ الحاجز الذي تُصَفّ عليه الحقائب أشر مفتشو الكمارك على حقائبه الأربع – وكانت كلها سوداء اللون – فمرّت بسهولة متناهية ، حسب الترتيب السابق ، بعد أن وُجّهت اليه أسئلة روتينية قليلة أجاب عنها باستعلاء أشبه باستعلاء ارستقراطي يحادث شرذمة من القرويين .

وحين أخذ أحد الحمّالين يضع الحقائب في عربته اليدوية ، اقترب منها أحد الوكلاء ، دون أن يثير انتباهاً ، ووقف ملاصقاً لها ، فاذا ابتعدت عنه متجهة إلى باب المطار ، كان في أسفل كل حقيبة منها خدش بسيط من سكينة يدوية صغيرة كانت في يد الوكيل الذي اقترب منها ، وكانت الغاية من تلك الاشارة تمييز الحقائب التي أدخلها « روزال » معه ، في حالة حدوث أي تبديل فيها .

وسار « روزال » إلى جانب حقائبه نحو باب المطار ، فتقدّم اليه سائق التاكسي « الخاص » ، ولكنه اعتذر قائلاً انه ينتظر شخصاً ليقلّه إلى المدينة بسيارته . وبذلك لم يعد من الممكن ابقاء « روزال » تحت الرقابة المباشرة وكان لا بد من محاولة مراقبته بالوقوف على أقرب مسافة منه لا تثير الريبة فيه ، ثمّ تعقيب السيارة التي ستقلّه إلى الفندق . وبقي «روزال» منتظراً في باب المطار ، وطال انتظاره . وكان يبدو عليه نفاد الصبر وتزايد القلق . وبعد أن انتظر خمساً وأربعين دقيقة اقتربت من الباب سيارة من نوع « ستيشن واكن » خرجت من سيل السيارات الكثيف المتدفّق نحو المطار ، فحملت روزال وحقائبه ، واتجهت نحو نيويورك في سرعة هائلة ، وخلفها سيارات وكلاء مكتب المخدرات والكمارك تحاول اللحاق بها بصعوبة .

ووصل السفير إلى فندق « بلازا » ، فاعطي الغرفة ذات الرقم (٩٤٤) في الطابق التاسع ، فصعد اليها . وكان جهاز الاصغاء السرّي

قد ركب فيها ، فسمعه الرجال الذين كانوا ينتظرونه في الغرفة المجاورة (ذات الرقم ٩٤٦) وهو يدخل ، ثم سمعوه بعد قليل يدير قرص التلفون ، وفهموا من محادثة قصيرة أجراها أنه سيقابل « تارديتي » في صالة الفندق في الساعة العاشرة من صباح ذلك اليوم . ولمّا حان الموعد شاهد الوكلاء المنتظرون في الصالة « تارديتي » وهو يدخل ، ثم شاهدوا الرجلين يتبادلان التحية ، ويستديران ليدخلا أحد المصاعد ، ودخل المصعد معهما شخص آخر طبعاً . وهو أحد الوكلاء ، اذ لم يكن لهما أن يختليا قطّ .

ذهب الرجلان إلى غرفة « روزال » ، وأغلقا الباب وراءهما . وحبس الوكلاء في الغرفة المجاورة أنفاسهم ، وكان جهاز التسجيل يدور .

لقد حانت اللحظة المنتظرة ، لحظة اجتماع المتآمرين المفترضين .

« كيف كانت السفرة ؟ »

كان ذلك صوت « تارديتي » . وجرى حديث قصير وسمع صوت دولاب يفتح ثم يغلق بعد ثوانٍ .

صوت « تارديتي » ثانية وهو يسأل عن أجرةِ الغرفة ، ثم حديث قصير آخر عن السفرة ، لا إشارة إلى الحقائب مطلقاً . وبعد خمس دقائق خرج تارديتي وبقي روزال وحيداً .

وأخذ رئيس الوكلاء في الغرفة المجاورة يدير الحديث في ذهنه ، ويتساءل : لماذا فتح روزال باب الدولاب ثم أغلقه ؟ لا شكّ انه فعل ليرى تارديتي الحقائب . وما هو أهم من ذلك أن المحادثة بين الرجلين لم تكن طبيعية.. صديقان لاتينيّان في بلد أجنبي ، وفي مدينة مثل نيويورك وليس في حديثهما شيء من المرح أو المزاح ، ولا اشارة إلى ما ينويان القيام به او المكان الذي سيقضيان فيه السهرة مثلاً .. بل حديث مقتضب بارد .. لقد كانا متوتّرين حقاً .

ومرّتِ الليلة . وفي صباح اليوم التالي جدّ جديد . فقد حجز « روزال » لنفسه مقعداً على طائرة تسافر إلى أوربا في الغد . اذن لا

بدّ من حسم الأمر في هذا اليوم ، أو تركه يفات نهائياً .

وشدّدت الرقابة على الفندق ، ووضعت العيون والأرصاد على كل مدخل من مداخله .

ولمّا نزل « روزال » إلى المطعم ليتناول فطوره ، كان اثنان من الوكلاء يتمشيان أمام غرفته في الممر ، وأدركا أن الغرفة كانت مفتوحة لأنهما سمعا صوت المكنسة الكهربائية التي تستعملها الخادمة لتنظيف الغرفة ، واستطاعا بسهولة أن يتأكدا من أن الحقائب الأربع ما تزال في مكانها . وفي هذه اللحظة سمع صوت المصعد يقف ، وبابه يفتح ، فتراجع الرجلان إلى إحدى الزوايا ، وبعد لحظات سمعا صوت « تارديتي » يسأل الخادمة عن روزال ، ثم صوتها يجيب بأنه ليس في الغرفة .

ونزل « تارديتي » فتبعه أحدهما ، وبعد دقائق صعد روزال إلى غرفته ، فأخبرته الخادمة أن زائراً سأل عنه قبل قليل . وسُمع «روزال» من غرفته بعد ذلك وهو يكلم فندق « سافوي — هلتن » بالتلفون ، ويترك رسالة لتارديتي بأنه ينتظره في غرفته .

وبقي « روزال » في الغرفة يذرعها جيئة وذهاباً ، وكانت أصوات قدميه تُسمع في الغرفة المجاورة في خطوات عصبية قلقة . ثم سُمع وهو يتمتم :

« لقد كان بأمكانه أن يكلمني بالتلفون » ..

ثم يعود فيذرع الغرفة من جديد .

« كان بامكان هذا الغبي أن يتصل بي ! »

وبعد ساعة كاملة ، شوهد « تارديتي » في الصالة متجهاً نحو المصعد، وكان بيده كيس ورقٍ صغير ، بني اللون. وسمع قرع على باب غرفة « روزال » ثم صوت السفير يرحب به بحرارة . ثم صوت كيس الورق يفضّ ، وأوراقٍ نقديّة تعدّ ، و « تارديتي » يقول :

« أصبح عندك الآن ٢٦,٥٠٠ دولار — ١٦,٥٠٠ منها لك ، وعشرة آلاف لي » .

« حسناً » .

« والآن ، اليك التعليمات » .

ومرّت لحظة سكون ، واصل بعدها تارديني كلامه قائلاً :

« ستأخذ الحقائب من هنا »

وكانت هذه أول اشارة إلى الحقائب تسمع في حديث الرجلين .

« لماذا ؟ »

« انهم لن يحضروا لأخذها منك هنا . »

« صحيح ؟ ولماذا ؟ »

« زيادة في الحذر .. كما تعلم .. الجماعة ! ستذهب بها أنت إلى ملتقى الشارعين ٧٢ ولكسنكتن ، وتكون هناك في الساعة ١٢/٣٠ بالضبط . سأكون واقفاً إلى جانب السيارة . و هناك توقف التاكسي ، وتنزل الحقائب الثلاث ، وتضعها في السيارة . سيكون هناك شخص يراك ، ولكنك لن تنظر اليه ، وهو لن ينظر اليك . السيارة ذات لونين : أصفر وبرتقالي . واذا لحظت ما يريبك عند خروجك من الفندق ، فاتجه إلى المطار مباشرة »

فقال روزال :

« ليس ثمّ ما يخشى » .

« وذلك ما أنا واثق منه أيضاً »

وعلى أثر هذا الحديث هرع إلى مكان الموعد نحو عشرة من رجال مكتب المخدرات ، وستة من رجال الكمارك ، ووقفت غير بعيد منه أيضاً سيارة « التاكسي » الخاصة ، وفي زاوية أخرى بعيدة سيارة فيها عدد آخر من الوكلاء . فاذا حلّ الوقت المعين ، كان « تارديني » ينتظر في ملتقى الشارعين ، ولم يلبث أن اقترب منه رجل آخر عرفه الوكلاء ، وهو « بوربونيه » محاسب شركة الطيران ، فوقف الرجلان يتحادثان بهدوء مفتعل .

أما « روزال » فقد كان متأخراً عن الموعد ، ولكن الوكلاء كانوا يعلمون أنه في الطريق ، وكان رئيسهم ، في سيارة مليئة بعدد آخر

من رجاله يقتفي أثر سيارة « التاكسي » التي استقلّها « روزال » في باب الفندق ، وأبلغهم بتوجهه اليهم بواسطة جهاز اللاساكي في السيارة .

ووصل « روزال » إلى الزاوية التي كان « تارديتي » و « بوربونيه » واقفين فيها ، وشوهد وهو يشير إلى السائق أن يفتح صندوق السيارة ، واتّجه « تارديتي » نحو الصندوق ، فتحفّز الوكلاء : فهي اللحظة المنتظرة .

ولكنها لم تكن .

فقد أغلق السائق الصندوق ثانية ، وعاد « روزال » إلى السيارة ، ودخلها معه « تارديتي » ، واستأنفت السيارة سيرها .

إن الأمر لا يجري حسب الخطّة المرسومة ، وعلى اي حال ، فانه لا يجري حسب الخطة التي شرحها تارديتي في الفندق .

وانطلقت سيارة روزال ، تتبعها سيارة الوكلاء ، وخلفهما سيارة « التاكسي » المزيّفة .

أما الشخص الثالث « بوربونيه » فقد علم الوكلاء بواسطة أجهزة اللاسلكي في سياراتهم أنه سار على قدميه قليلاً ، ثم استقلّ السيارة ذات اللونين الأصفر والبرتقالي ، وأنه كان يسير بها الآن في شارع مواز ، وفي الاتجاه نفسه الذي تسير فيه سيارة « روزال » و « تارديتي » .

وكان رئيس الوكلاء في سيارته التي تتبع روزال يفكّر هل يلقي القبض عليه الآن ، أم يواصل تعقّبه إلى حيث يذهب ، مجازفاً بأن يضيع أثره في زحمة المدينة .

وكان لا بدّ من اتخاذ قرار عاجل ، وتنفيذه في هذه اللحظة .

ولم يطل تردده ، فصاح ، و « الميكروفون » بيده :

« اطبقوا عليه ! »

فسدّت سيارته الطريق على سيارة روزال من اليمين ، بينما سدّته عليها من الشمال سيارة التاكسي « المزوّرة » التي كانت تقلّ عدداً آخر من الوكلاء ، فأجبرت سيارة « روزال » على الوقوف ،

ووثب الرجال من كلتا السيارتين ، ليتنزلوا السفير « روزال » والتاجر « تارديتي »، ويضعوا في معاصمهما الأصفاد. وأمر رئيس الوكلاء سائق التاكسي بفتح الصندوق ، وهو يقول في نفسه :

« إذا لم تكن هذه الحقائب مليئة بالمخدرات ، فالعملية كلها عبث في عبث » .

وألقى على الحقائب السود نظرة عجلى . نعم ، إن خدوش السكين كانت عليها ، فهذه إذن هي الحقائب التي أدخلها روزال معه . والآن فلتفتح .

وشاهد الوكلاء رزمة بعد أخرى من مسحوق أبيض .. إنه الهيروين .

ونظر « روزال » إلى الحقائب المفتوحة ، وصاح مشيراً إلى رفيقه :

« إنها له .. له » .

وكان الوكلاء في الوقت نفسه قد أوقفوا السيارة ذات اللونين في الشارع الموازي ، وقبضوا على ركابها ، ثم شرعوا في تفتيشها .

وفي مقر مكتب المخدرات تمّ جرد الصيد . فوجد في إحدى الحقائب ، وهي التي كان روزال يزمع إعادتها معه إلى اوروبا ، مبلغ ٢٦,٥٠٠ دولار ، وهو المبلغ الذي عدّه تارديتي في غرفة الفندق ؛ وكان ١٦,٥٠٠ دولار منه لروزال ، و ١٠,٠٠٠ دولار له . كما وجدت تحت المقعد الأمامي للسيارة الأخرى ذات اللونين رزمة أخرى ، ولدى فتحها وجد فيها أكثر من ٤١ ألف دولار ، والظاهر أن هذا المبلغ كان سيدفع ثمناً لما في الحقائب الثلاث ، وكانت في تلك الحقائب كمية من الهيروين النقي يزيد وزنها عن مائة باون وتبلغ قيمتها بالمفرد في السوق الاميركية حوالي ١٥ مليون دولار .

إن كمية المخدرات التي وجدت في حقائب السفير « روزال » كانت أكبر كمية من المخدرات ضبطت في تاريخ مكتب المخدرات الأمريكي ، كما أن عملية اكتشافها كانت أشبه بقصة بوليسية مثيرة ، منها بحادثة تهريب حقيقية يسيء فيها دبلوماسي إلى سمعة بلاده ، وسمعة مسلكه .

وفي يوم ١١ كانون الثاني (ديسمبر) ١٩٦١ كان السفير — السابق — موريسيو روزال في قفص الاتهام يواجه المحكمة الفدرالية ، وإلى جانبه رفاقه في عملية التهريب تارديتي ، وبوربونيه ، وشخص آخر يدعى كالاماراس اكتشفت علاقته بالشبكة خلال التحقيق .

ووقف المدعي العام ليطالب المحكمة بايقاع أقصى العقوبة على روزال ، قائلاً :

« هنالك دبلوماسيون من دول أخرى يقومون بأعمال مماثلة لما قام به روزال ، وان عقوبة صارمة تصدر بحقه ، ستكون رادعاً لغيره » .

وحكمت المحكمة على السفير روزال بالسجن لمدّة خمسة عشر عاماً ، كما حكمت بالسجن لمدّة تسع سنوات على تارديتي وبوربونيه .

وقال القاضي في حيثيات الحكم :

« إن إدخال هذا الهيرويين ، لا يختلف عن جلب حقائب مليئة بجراثيم السل » .

ووصف روزال بأنه خائن لأسرته وحكومته ودينه . ولمّا سأله هل لديه ما يقوله ، أجاب :

« إنه لموقف فظيع ... » ثم أضاف قائلاً :

« لا أظن أنني استحق هذه العقوبة القاسية ، وان لي أمّاً عجوزاً تنتظرني في غواتيمالا . إنني اطلب الرأفة باسم تلك المرأة المسكينة » .

ولم يجد السيد السفير موريسيو روزال في السجن أية معاملة خاصّة .

غرام في وارسو

كان ذلك في سنة ١٩٦١ ، وفي مرحلة دقيقة حسّاسة من العلاقات المتوترة بين الشرق والغرب ، حيث كانت حركة خاطئة صغيرة تكفي لالقاء العالم في أتون الدمار الذرّي .

ففي صباح ١٤ حزيران صدرت الصحف الأمريكية الكبرى وعلى صفحاتها الأولى صورة « ايرفين سكارباك » السكرتير الثاني في السفارة الأمريكية في فرصوفيا، يحيط به اثنان من رجال الأمن ، ويداه مكبلتان بالسلاسل . كما حملت تلك الصحف في صدرها عناوين ضخمة عن هذا الدبلوماسي وتوقيفه في واشنطن بتهمة بيع أسرار بلاده إلى إحدى دول المعسكر الشيوعي .

ولم تنقطع تلك الصحف ، خلال الأشهر الستة التالية ، عن نشر تطورات قضية هذا الدبلوماسي ، وسير محاكمته ، إلى جانب تصريحات وريبورتاجات متنوعة عن كل من ظهرت له علاقة بها . وكان سبب هذا الاهتمام الكبير من الصحافة والرأي العام بالقضية هو أنها كانت -على ما ذكرته تلك الصحف، ما صرّح به وزير الخارجية دين رسك- أول حادثة يبيع فيها دبلوماسي أمريكي أسرار بلاده إلى دولة أجنبية، فضلا عن الظروف والملابسات التي أحاطت بالقضية واكتشافها .

ولم يقم هذا الدبلوماسي المنكود بما قام به طمعاً في المال ، ولا بسبب عقيدة سياسية، وانما من أجل فتاة بولونية في الثانية والعشرين من عمرها، ذات عينين نجلاوين، وصوت ذي بحّة مغرية، وجسم نحيل

دقيق الأعطاف . وكان من المحتمل جداً . أن يتمكن من إخفاء فعلته هذه : فينجو بنفسه ، لولا سلسلة من المصادفات الغريبة التي أدت إلى افتضاح أمره ، والقاء القبض عليه .

عيّن « ايرفين سكاربك » سكرتيراً ثانياً في السفارة الأمريكية في فرصوفيا في أواخر سنة ١٩٥٨ فعهدت اليه أعمال السفارة الادارية ، كالاشراف على شؤون المستخدمين المحليين (وعددهم ١٣٥ شخصاً بولونياً) ، وشؤون سكنى الموظفين وتسفيرهم ، وصيانةأبنية السفارة ، واستيرادحاجاتهاوحاجات موظفيهامن أطعمةومشروبات. وكان السفير الأمريكي « جاكوب بيم » يشجع موظفيه — مهما كانت أعمالهم — على قراءة التقارير والمراسلات التي تتبادلها السفارة مع وزارة الخارجية ، والسفارات الامريكية الاخرى في البلاد المجاورة ، ليكونوا على صلة بشؤون البلد الذي يعملون فيه ، واطلاع على الوضع الدولي والسياسة العالمية . ولكن واجبات « سكاربك » لم تتطاب شيئاً من ذلك ، كما انه لم يظهر من جانبه اهتماماً زائداً بالتقارير والمراسلات السرّية في الاضبارة الخاصة التي كانت تدور على الموظفين الدبلوماسيين ليطلعوا عليها . وكان السفير يشجع موظفيه أيضاً على التمتع باجازاتهم ، ليبتعدوا من حين لآخر عن جوّ العمل ، وجوّ فرصوفيا ، ترفيها عنهم وتجديداً لنشاطهم .

وفي مطلع سنة ١٩٦١ لم يكن « سكاربك » ليعتزم الذهاب باجازة إلى أي مكان ، وكان أصدقاؤه يرونه مشمّراً عن ساعديه ، ومنكباً على عمله حتى ساعات متأخرة من الليل ، وقد تدلت خصلة شعره الذي اختلط مسودّه بمبيضّه على أكوام المعاملات أمامه .

وكان « سكاربك » في الأربعين من عمره ، وله زوجة المانية وثلاثة اطفال ، وهي زوجته الثانية . أما زوجته الأولى فقد طلقها منذ سنوات ، وهي تقيم مع زوجها في أمريكا . وكان زملاء « سكاربك » يصفونه بأنه موظف دؤوب على العمل ، بل انهم لاحظوا أنه لشدة [illegible] زوجته وأطفاله الثلاثة لزيارة والدة زوجته

في « دوسلدورف » بألمانية . وقد لاحظ ذلك أيضاً — فيمن لاحظه — زميله « فيكتور ديكيوس » وهو الموظف المسؤول عن شؤون الأمن في السفارة ، وكانا — هو وزوجته — صديقين لـ « سكارباك » وزوجته . فقد استغرب « ديكيوس » بقاء « سكارباك » بمفرده في فرصوفيا، بينما كان باستطاعته أن يسافر مع أسرته إلى المانيا ، ولم يكن ثمّ ما يدل على أن العلاقات بين « سكاربك » وزوجته ليست على ما يرام .

وفي أوائل نيسان سنة ١٩٦١ جاء إلى موظف الأمن « ديكيوس » أحد موظفي الشعبة القنصلية في السفارة ، فأبلغه بحدث صغير ولكنه غير اعتيادي ، وهو أن « سكارباك » قد توسّط لفتاة بولونية في الحصول على سمة لدخول المانيا الغربية . وكان القنصل الامريكي في ذلك الوقت مخوّلا منح سمات الدخول إلى المانيا الغربية نيابة عن حكومتها بسبب عدم وجود تمثيل دبلوماسي بينها وبين الحكومة البولونية. وقد أفاد ذلك الموظف أن احد مساعدي « سكاربك » اصطحب الفتاة البولونية إلى مكتب السمات ، وابدى أن « سكاربك » يرجو مساعدتها ومنحها السمة بأسرع ما يمكن ، لأنها تريد السفر بصورة عاجلة ، لتكون إلى جانب سرير أخيها الذي يلفظ أنفاسه الاخيرة في فرانكفورت . وابرزت الفتاة برقية وردتها من أخيها المريض يطلب فيها حضورها فوراً .

ولم يكن اهتمام « سكارباك » بحصول الفتاة البولونية على السمة هو الذي لفت نظر الموظف القنصلي ، أو أثار استغرابه ، بل انه استغرب كيف استطاعت ان تحصل على جواز السفر . ان الحكومة البولونية لم تكن لتمانع في سفر العاجزين والمرضى ، ولكنها لا تسمح عادة بسفر رعاياها الفتيان والفتيات إلى الغرب ، لأنها ترى أن مستقبل البلاد يتوقف على سواعدهم .

وبينما كان هذا الموظف يتحدث ،خطر لـ « ديكيوس » أمر ، فكان ذلك أولى المصادفات التي رافقت هذه القضية . كان « ديكيوس » قد اطّلع صباح ذلك اليوم على قائمة طلبات الاجازات التي يقدمها الموظفون ، وكان بينها طلب من « سكاربك » لاجازة أمدها اسبوعان

بنفسيهما في فرانكفورت ، حيث كانت الفتاة البولونية ستذهب أيضاً .
وتذكر « ديكيوس » انه سمع بأن زوجة « سكارباك » وأطفاله كانوا لا يزالون في دوسلدورف ، فلعله ينوي أن يلتحق بهم هناك، ثم يصطحبهم إلى فرانكفورت . وقد ألقى هذا السؤال عرضاً على موظف في السفارة يسكن بجوار « سكارباك » ، فقال الموظف :
« زوجة سكارباك ؟ انها حسبما فهمت في طريقها إلى فرصوفيا ».
وسواء أكان ذلك الموظف ميالاً إلى الثرثرة ، أم انه شكّ في ان اهتمام « ديكيوس » بأمر « سكارباك » كان أكثر من اهتمام عرضي ، فانه تطوّع بملاحظة صعق لها « ديكيوس » إذ تساءل قائلاً :
« وعلى ذكر سكارباك ، ما سبب هذا الاهتمام المفاجىء الذي يبديه بقراءة الملفات ؟ لقد كنت أداعبه في ذلك قبل أيام .. »
وكان يقصد إضبارة المخابرات السرية التي طالما تجاهلها «سكارباك» في السابق ولم يظهر كبير اهتمام بها.
وعاد « ديكيوس » إلى مكتبه ليفحص قطع المعلومات التي تساقطت أمامه فجأة ، ويربط بعضها ببعض .
جواز سفر لشابة بولونية .. اهتمام مفاجيء بالملفات السرّية .. سفرة « سكارباك » إلى فرانكفورت ، بينما توشك زوجته أن تعود من دوسلدورف التي تبعد عنها ساعتين بالسيارة..رغبة الفتاة في الذهاب إلى فرانكفورت .. أهي جميعاً محض مصادفات ، أم أن فيها أكثر من ذلك ؟
وتمتم « ديكيوس » لنفسه : « إن هذا كثير .. ولا بد أن أتحرّى ماذا يصنع « سكارباك » في « فرانكفورت » .
وفي مساء ذلك اليوم أرسل « ديكيوس » برقيتين سرّيتين ، إحداهما إلى الموظف المسؤول عن الأمن في السفارة الأمريكية في بون (واسمه كينيث نوف) يطلب اليه فيها أن يخرج عن القاعدة المرعيّة بعدم التعرّض للحياة الشخصيّة لموظفي الخدمة الخارجية ومراقبة « سكارباك » في فرانكفورت ، والثانية إلى واشنطن لتأييد هذا الاجراء .

وفي دائرة الأمن بوزارة الخارجية في واشنطن جرى نقاش طويل حول برقية « ديكيوس » ، وتقرر بنتيجته أن مراقبة « سكاربك » في فرانكفورت ليست اعتداء كبيراً على حريّته الشخصية . وليس من الضروري أن يعلم هو أو غيره بأنه مراقب ، فان كانت الاجازة بريئة فلن تترتب على الأمر نتيجة ، وان كان في أمر « سكاربك » ما يريب ، فتلك خير طريقة لاكتشافه .

وغادر « سكاربك » فرصوفيا في ١٣ نيسان بسيارته ، بعد أن حجز شقّة في دار الضيافة الامريكية في فرانكفورت ، وهي عبارة عن شقق صغيرة اعدتها الحكومة الأمريكية لموظفيها المارّين بفرانكفورت أو القادمين اليها باجازة أو زيارة قصيرة في طريقهم إلى أماكن عملهم الجديدة في أوربا . وفي اليوم نفسه حجز « نوف » – موظف الأمن في سفارة بون – شقة أخرى تطل على مدخل الشقة التي حجزت لـ « سكاربك » . وبالرغم من أن كلا الرجلين كانا موظفين في وزارة الخارجية فلم يكن أحدهما ليعرف الآخر ، ولم يسبق لهما أن التقيا .

وفي ساعة متأخرة من مساء ذلك اليوم وصل « سكاربك » إلى دار الضيافة ، ورآه « نوف » يدخل شقّته ، ثم رآه يغادرها صباحاً . وأدرك « نوف » أنه لن يستطيع تعقّبه في فرانكفورت ، فقرر الاستعانة بالشرطة الألمانية ، فاعطاها أوصاف سيارته ورقمها .

وفي صبيحة اليوم التالي كان موظف الأمن « نوف » يترصّد شقة « سكاربك » من نافذته ، فلما رآه يخرج أراد أن يتأكد من تعقب الشرطة الألمانية له ، فخرج وراءه في هدوء ، ورآه يخرج بسيارته من منعطف دار الضيافة ، وخلفه سيارة ألمانية تتبعه . وبينما كان يعود إلى شقته لاقى في الباب الرئيسي فتاة نحيفة تمرّ أمامه مسرعة ، فلم يلق اليها بالاً .

وبعد مدة قصيرة كان أحد رجال الشرطة الألمانية يكلم « نوف » بالتلفون ليخبره بأن « سكاربك » لم يمكن تعقبه حتى النهاية ، وأن سيارة الشرطة فقدت أثره في زحمة السيارات ، ولكنه أخبره أيضاً

بان « سكاربك » عند خروجه من باحة الضيافة استدار بسيارته إلى اليمين ثم وقف في المنعطف ، وهناك صعدت إلى سيارته فتاة نحيفة ، ذات شعر قصير غامق ، ووجنات غائرة ، وكانت ترتدي بذلة ذات خطوط متقاطعة ، سوداء وحمراء .

وتذكر «نوف» الفتاة التي صادفها في الباب ، فهل كانت هذه أوصافها ؟ وهل كان « سكاربك » أدخلها إلى دار الضيافة خلسة ؟ واذا صحّ ذلك فمن تكون ؟ فوجّه استفساراً إلى « دائرة الهجرة » لتأكد من سجلات الداخلين إلى المانيا عن وصول الفتاة البولونية « اورسولا ديتشر» التي حصلت على سمة الدخول من فرصوفيا بمساعدة « سكاربك » . ولما كانت السلطات الألمانية تشترط أن ترفق طلبات سمة الدخول بصورة طالب السمة ، فان الشرطة قد تستطيع تمييز الفتاة من الصورة التي أرفقتها بطلبها . واذا كانت الفتاة التي دخلت سيارة « سكاربك » هي « اورسولا ديتشر » فان وجودها معه يدل على أن اهتمامه بحصولها على السمة الألمانية كان بلا ريب أكثر من مجاملة أو مساعدة عابرة ، وان الموعد في فرانكفورت كان بترتيب سابق .

وفي صباح اليوم الثالث كان « نوف » على شباك غرفته ينتظر خروج « سكاربك » ، فلما رآه خارجاً أخبر الشرطة ، ثم أخذ يراقب باب شقته . وبعد بضع دقائق رأى الباب يفتح بهدوء ، ثم فتاة تتسلل منه على أطراف أصابعها ، فتاة نحيفة ذات شعر قصير غامق ، ووجنات غائرة ، وكانت ترتدي بذلة ذات خطوط متقاطعة ، سوداء وحمراء . وعاد « نوف » إلى النافذة ، فشاهد الفتاة وهي تخطر على الشارع مسرعة بكعبيها العاليين، ثم تستدير يميناً نحو المنعطف الذي ذكرت الشرطة انها شاهدت « سكاربك » يتوقف فيه في اليوم السابق ، ويأخذ الفتاة بسيارته .

وفي هذه المرة حرصت الشرطة الألمانية الا تفقد أثر « سكاربك » [illegible] من التقاط صورته مع

الغداء خرج الاثنان في جولة على طرق محاذية للنهر . وكان النهار جميلاً ، وكلما توقفت السيارة في إحدى نقاط التقاطع بانتظار مرور القطار ، كانا يميلان على بعضهما .. ولدى عودتهما إلى دار الضيافة شاهدتهما الشرطة يدخلانها منفردين .

ولم يعد ثمّ شك بأن الفتاة كانت تشارك « سكاربك » شقته . واستطاعت الشرطة الألمانية فيما بعد أن تتأكد من هوية الفتاة بمقارنة الصور التي التقطت خلسة خلال الغداء على شرفة الفندق ، بالصور المرفقة باستمارة طلب السمة .

ولمّا أبرق « نوف » بالأمر إلى واشنطن ، أدرك المسؤولون في وزارة الخارجية أن قضية « سكارباك » من الأهمية بدرجة تستوجب عرضها على وزير الخارجية . وكان يستنتج منها أنها أكثر من اهمال بسيط من جانب « سكاربك » أو مغامرة غرامية اندفع فيها . وطالما كانت العلاقة بينه وبين الفتاة قائمة قبل مجيئهما إلى فرانكفورت ، فلا شك أن الاستخبارات البولونية كانت على علم بها ، وذلك يزيد في أهمية الفتاة بنظرهم ، ومع ذلك فقد سمحوا لها بمغادرة البلاد ، ومنحوها جواز سفر ، فما تفسير ذلك ؟

لا بدّ أن هنالك مبادلة ، وأن جواز السفر كان ثمناً لشيء ما . والفتاة امّا أن تكون جاسوسة سلّطت على « سكاربك » ، أو أن السلطات البولونية اكتشفت علاقتها بالدبلوماسي الامريكي فأجبرتها على التعاون معها .

على ان هنالك احتمالا آخر ، وهو أن يكون منح الفتاة جواز السفر مكافأة للدبلوماسي الأمريكي على خدمات قدّمها .

واقترح مدير دائرة الأمن في وزارة الخارجية – حين رفع الأمر إلى الوزير – السماح لسكاربك باكمال إجازته في فرانكفورت ، وتركه يعود إلى فرصوفيا ، اذ لم يكن من الانصاف أن يستدعى إلى واشنطن دون أن يكون لدى الوزارة دليل ملموس على احد تلك الاحتمالات ، لأنه اذا أنكر أية علاقة مريبة له بأية جهة من الجهات

من تستطيع اقصاءه عن الخدمة . وستظل ترافق « سكاربك » سحابة لم تنجل من الشك .

وكان خدمة « سكاربك » في فرصوفيا ستنتهي في حزيران، أي بعد حوالي شهرين ، ومن الممكن مراقبته حتى ذلك الوقت . واقترح أيضاً – تفادياً لمزيد من التسرّب في المعلومات – أن ترفع جميع المخابرات السرّية والحساسة من الاضبارة المخصصة لاطلاع الموظفين في سفارة فرصوفيا قبل عودة سكاربك .

ووافق وزير الخارجية « دين رسك » على مقترحات مدير ادارة الأمن . وأطلق يده في معالجة القضية بما يراه مناسباً .

وعلى ذلك اتخذت الاجراءات اللازمة في سفارة فرصوفيا، فصدرت التعليمات الدقيقة إلى أمين المحفوظات وموظفي الشيفرة بما يترتب عليهما القيام به ، وبكيفية الاستجابة لطلبات سكاربك دون إثارة شكوكه . ورفعت جميع المواد السرية المهمّة من التداول ، كما تقرر أن تفحص جميع الأضبارات في فترات معينة للتأكد من عدم إخراج شيء منها خلال أوقات الدوام الرسمي ، كما رُتب أن تُحصى أوراق تصوير الوثائق (الفوتوستات) بدقة ، ويجرد ما يصرف منها يومياً ، لعل سكاربك يستعمل تلك الاوراق في تصوير بعض الوثائق .

وكان « سكاربك » لا يزال في فرانكفورت ، وكان قلق موظف الأمن « نوف » الذي يقوم بمراقبته يتزايد ، لأن الشرطة الألمانية شعرت من طريقة قيادة سكاربك سيارته ، ومن استداراته المفاجئة ، انه كان يشك بأنه مراقب او ملاحق . وفي أحد الأيام بينما كانت الفتاة البولونية إلى جانبه ، أوقف سيارته فجأة ، ونزل منها ، واندفع إلى السيارة التي وقفت خلفه غاضباً ، وأخذ يتّهم سائقها بملاحقته ، وقال له : « إنني دبلوماسي أمريكي، من السفارة الأمريكية في فرصوفيا، وهذه التي معي بولونية يتيمة مسكينة ، وقد وقعت في غرامها ،

بعد أن تمتم ببعض عبارات الاعتذار . ولا شك أن « سكاربك » كان يظن أن الشرطة الألمانية تريد أن تعرف ماذا تصنع فتاة بولونية في المانيا بمفردها ، فروى هذه القصة عن غرامه بها لتبديد شكوكهم. وقد استغل « نوف » هذا التبرير ، فطالب إلى الشرطة أن تخفف رقابتها عليه ، وتجعلها أكثر حيطة ، لتوهم « سكاربك » بأن تفسيره كان مقنعاً للشرطة . على أن « سكاربك » فيما يظهر أراد أن يزداد تأكداً ، فزار مقرّ الشرطة الألمانية بصحبة شرطي ألماني يدعى « فريتز كوردز » ، فأخبر هذا الضابط زملاءه أن سكاربك دبلوماسي أمريكي ، وصديق قديم له ، وهو يشكو من أن هناك سيارات ألمانية تلاحقه أينما ذهب ، وقدّم أرقام بعض السيارات التي دوّنها سكاربك ، طالباً التحري عن أصحابها ، ووقف هذه المضايقات . وقد أبدى ضابط الشرطة في الشعبة المختصة أنه لا يعرف عن الأمر شيئاً ، واقترح على سكاربك – بصفته مواطنا أمريكياً – أن يبلغ شكواه إلى القنصلية الأمريكية .

وبهذه الشكوى دخل القضية عنصر جديد ، وهو ضابط الشرطة « فريتز كوردز » ، فماذا يمكن أن تكون صلة شرطي ألماني بدبلوماسي أمريكي في فرصوفيا؟ ولكنْ اكتشاف ذلك لم يستغرق طويلا ، فقد ظهر في السجلات أن « كوردز » سبق له أن كان سائقاً في دائرة المندوب السامي الأمريكي في المانيا ، يوم كان سكاربك موظفاً في تلك الدائرة ، وتعود معرفة بعضهما ببعض إلى تلك الفترة .

وقبل أن يحلّ موعد عودة « سكاربك » إلى فرصوفيا ، علم «نوف» من الشرطة الألمانية أنه يحاول استئجار غرفة للفتاة في فرانكفورت ؛ ومعنى ذلك أنها لا تنوي العودة إلى فرصوفيا . وكان هذا تطوّراً له أهميته ، خاصة وأن الشرطة الالمانية تأكد لديها بأن الأخ الذي زعمت الفتاة أنه على فراش الموت في فرانكفورت لم يكن له وجود ، وأن البرقية التي أبرزتها كانت ملفقة ، ومجرّد ذريعة للخروج من بولونيا .

إن نيـة الفتاة في البقـاء في المانيا زادت الموضوع غموضاً ، كما قللت من احتمال تعاونها مع سكاربك لخدمة الاستخبارات البولونية .

وفي تلك الحالة لماذا منحتها السلطات جواز السفر ؟
وفي خلال هذه الفترة استعرض المسؤولون عن الأمن في سفارة فرصوفيا جميع المراسلات التي سبق أن وضعت في الاضبارة المعدة لاطلاع الموظفين منذ بداية تلك السنة — حيث بدأ اهتمام سكاربك بها — حتى مغادرته فرصوفيا في منتصف نيسان ، وذلك لتقدير الأضرار التي ترتبت في حالة إفشاء محتوياتها . على أن هنالك ما هو أهم من ذلك وأخطر . فالبولونيون كانوا — بلا ريب — يراقبون الرسائل التي تبرق من فرصوفيا بالشيفرة. فاذا كانوا قد حصلوا على نصوص كثير من تلك البرقيات ، فسيكون بامكانهم مضاهاتها بأصولها المرسلة بالشيفرة ، وقطع مرحلة في سبيل فك رموزها . وان ذلك سيتطلب تغيير الشيفرة في جميع سفارات الولايات المتحدة في العالم ، بكلفة تبلغ ملايين الدولارات ، فضلاً عما يعود على البلاد من أضرار لا تقدّر في معاملتها مع بولونيا ودول المعسكر الاشتراكي بأجمعها .
وفي ٣ مايس ترك « سكاربك » عشيقته في فرانكفورت وعاد إلى فرصوفيا . ولاحظ « ديكيوس » — موظف الأمن — أن سكاربك لم يقترب من الاضبارة السرّية بعد عودته . وكلما كانت الأيام تمرّ ، دونما تطوّر جديد في الأمر ، كان « ديكيوس » يزداد قلقاً ، كما كان يخشى أن يبدر من أمين المحفوظات أو من كاتب الشيفرة ما يفضح الخطة ، أو أن ينتبه « سكاربك » إلى خلوّ الاضبارة من المراسلات السرّية والمهمة ، أو أن يلتجيء إلى الحكومة البولونية : فيفلت بذلك مما دبرّ له . وكانت خدمته في فرصوفيا تقترب من نهايتها . وأخذ المسؤولون عن الأمن في وزارة الخارجية في واشنطن يشاطرون «ديكيوس» قلقه . فلما اقتنعوا بأن ليس ثمّ فائدة ترجى من الانتظار مدّة أطول ، بل قد يكون فيــه أضرار كثيرة ، رتبوا اصدار كتاب روتيني الى سكاربك بواسطة دائرة « الذاتيّة » .
وكان الكتاب الروتيني يتضمن الايعاز إلى « سكاربك » بالتوجّه إلى القنصلية الأمريكية في « نابولي »

بسبب انتهاء خدمته في فرصوفيا ، بعد أن يقضي أسبوعاً واحداً في واشنطن للمداولة (وهي الطريقة المعتادة عند نقل الموظفين من مكان إلى آخر) وبعد أن يتمتع باجازته السنوية مع اسرته . وكانت في الكتاب الروتيني زيادة بسيطة ، فقد طلب إلى سكاربك — وهو في طريقه إلى الولايات المتحدة — أن يتوقف في بون لمدّة ثلاثة أيام للمداولة مع الموظف المسؤول عن الأبنية الأمريكية في المنطقة . ولما كان الاشراف على أبنية السفارة الامريكية في فرصوفيا من جملة واجبات «سكاربك» فقد بدا من الطبيعي أن يرغب الموظف المسؤول عن أبنية المنطقة في مقابلته .

وكان القصد من الايعاز إلى سكاربك بالذهاب إلى « بون » هو استدراجه إلى فرانكفورت ، وتدبير مقابلات تجري في وقت واحد ، وبصورة مفاجئة بين أشخاص ثلاثة هم « سكاربك » ، والفتاة البولونية « اورسولا ديتشر » ، والشرطي الألماني « فريتز كوردز » . ولم يكن من الممكن أن يطلب إلى سكاربك الذهاب إلى فرانكفورت مباشرة ، لأنه يعلم أن مقرّ الموظف المسؤول عن الأبنية هو في بون وليس في فرانكفورت .

وغادر « سكاربك » فرصوفيا مع زوجته وأطفاله الثلاثة بعد أن أقام زملاؤه في السفارة حفلات عديدة لتوديعه ، وهم يجهلون كل شيء عنه . فذهبوا أولا إلى « دوسلدورف » حيث تقيم والدة زوجته، وقد اقترح سكاربك على زوجته بأنها قد تفضّل قضاء الأيام الثلاثة مع أمّها بدلا من انتظاره في « بون » حيث سيكون مشغولا مع الموظف المسؤول عن الأبنية . وفي ٤ حزيران ترك « سكاربك » أسرته في « دوسلدورف » واتجه مباشرة إلى عشيقته البولونية في فرانكفورت. وشاهدته الشرطة الألمانية وهو يغادر غرفتها قبيل الفجر ويستقلّ قطار الساعة الخامسة صباحاً إلى « بون » . وفي الساعة التاسعة كان يدخل السفارة الأمريكية في بون حسب الموعد المقرر . وكان بانتظاره أحد الموظفين ، فاستقبله بسيل من الاعتذارات لأن مسؤول الأبنية الذي

حضر سكاربك لمقابلته قد استدعي إلى « فرانكفورت » بمهمة طارئة . ولكنه كان لا يزال راغباً في مقابلته . وأضاف أن المستر « فابر » - أحد موظفي السفارة - قد تطوع لايصاله بسيارته إلى فرانكفورت .

وعندما وصل الرجلان إلى القنصلية في فرانكفورت ، فتح فابر الغرفة التي كان ينتظر فيها رئيسه « نوف » . وأشار على « سكاربك » بالدخول ، ثم انسحب بخفّة ، فذهب إلى الغرفة المجاورة التي سبق أن نصب فيها خطّان تلفونيان مباشران ، أحدهما إلى ادارة الشرطة العامّة ، والآخر إلى شرطة مدينة فرانكفورت . وأعطى « فابر » بواسطة الاول إشارة بجلب الفتاة البولونية « اورسولا » بحجة الاستفسار منها عن أمور تتعلق بسمة دخولها واقامتها ، وطلب بواسطة الخط الثاني إحضار الشرطي « فريتز كوردز » .

وفي الغرفة التي جلس فيها « سكاربك » و « نوف » كان جهاز التسجيل الذي أخفي في أحد الادراج يدور . وكـــان « نوف » وهو يواجه « سكاربك » يفكر بغير قليل من المرارة ، أن جميع التحرّيات ، وجميع البرقيات والحقائب الدبلوماسية التي تبودلت بين فرصوفيا وبون وواشنطن ، والخطط التي رسمت خلال الشهور الماضية ، قد اجتمعت الآن ، وانحصرت في اللحظات القادمة ، وفي هذه الغرفة الصغيرة . فاذا فشل في استجوابه - وان فشله سيسجل بصورة واضحة على الشريط الذي يدور الآن - فان الحكومة الأمريكية لن تعرف إلى الأبد هل كانت قضية « سكاربك » مجرّد علاقة غرامية غير مشرّوعة ، أم تهديداً خطيراً لسياستها الخارجية .

وكان « نوف » قانونياً بدراسته ، ورجلا كيّساً رقيق الحاشية بطبعه . فبدأ كلامه قائلاً إن لديه معلومات عن قيام « سكاربك » بتغيير العملة البولونية في السوق السوداء . وكانت مثل هذه المعلومات موجودة لديه فعلا ، فتعمّد أن يبدأ حديثه بهذا الموضوع ليسوّغ بنظر « سكاربك » اهتمام موظف الأمن بأمره ، ورغبته في محادثته .

أنه قام بشراء العملة البولونية

في السوق السوداء أحياناً .

وخطا « نوف » خطوة أخرى ، فسأل « سكاربك » في حذر شديد . هل يعرف الفتاة البولونية « أورسولا ديتشر » ؟ فلم يستطع سكاربك أن ينكر أنه ساعدها في الحصول على السمة الألمانية . فسأله « نوف » هل له علاقة غرامية بهذه الفتاة ، وهل أسكنها معه في فرانكفورت ؟

وبعد مزيد من الاطراق ، اعترف سكاربك بذلك أيضاً . وكان من الواضح أنه استنتج بأن الشخص الذي كان يتعقب سيارته في فرانكفورت قد أخبر عن ذلك .

وسأله « نوف » أين رأى الفتاة للمرة الاولى ، وكيف تعرّف عليها ؟ فقال إنها اتصلت بالسفارة تلفونياً ذات مساء في أيلول سنة ١٩٥٩ تسأل عن عمل ، وان الحارس الخفر أحال المخابرة التلفونية عليه ، وكان لا يزال في المكتب يعمل ، فاجتذبه صوتها ، واتفق معها على موعد في الليلة نفسها ، ثم تكررت المواعيد بينهما . وفي نيسان ١٩٦٠ انتقلت الفتاة إلى شقة صغيرة استأجرها لها « سكاربك » ، ومنذ ذلك الوقت صار يقضي كل لياليه معها تقريباً . وكان يغادر عمله مساء ، فيتناول عشاءه مع أسرته ، ثم يعود إلى مكتبه في السفارة بحجة أشغاله الكثيرة ، وبعد أن يعمل بضع ساعات يذهب إلى شقة الفتاة ، فيبقى معها حتى الساعة الثالثة صباحاً . وهكذا عاش — لمدّة سنة واحدة تقريباً — على ثلاث ساعات من النوم فقط .

وبعد هذه الاعترافات ، كان « نوف » مستعداً أن يطرق صميم الموضوع . فسأل « سكاربك » كيف حصلت الفتاة على جواز السفر ؟ ولمّا حاول أن يعلل ذلك بأجوبة عامّة مطاطية ، ذكّره « نوف » أن السلطات البولونية لا تسمح لفتاة شابة صحيحة الجسم بمغادرة البلاد ، خاصة وانها تعلم بأن لها علاقة غير مشروعة بدبلوماسي أمريكي . فأجاب « سكاربك » أن ذلك تمّ بسهولة كبيرة ، وأن السلطات فعلت ذلك لأجله ، ومجاملة له ! ثم سرد ما حدث في ليلة ٢٣ كانون

الأول (اكتوبر) سنة ١٩٦٠ :

بينما كان « سكاربك » في شقّة الفتاة ، اقتحم الشقة عليهما عدد من رجال الاستخبارات ، وكان أول ما شاهده حين مداهمتهما آلة تصوير تلتقط صورتهما وهما في الفراش . وقال إنه تلقّى بعد ذلك تهديداً باخبار زوجته واخبار السفارة عن علاقته بالفتاة ، وبنشر تصاويره ، إن هو لم يتعاون مع الاستخبارات البولونية . كما ادّعى أنهم هددوه بارسال عشيقته إلى سجن خاص ببائعات الهوى . حيث تكون أحياناً تحت تصرّف الجنود . ولكن « سكاربك » أكّد بانه لم يعط البولونيين ما له أية أهمية ، وقال « إذا زعم أحد بانني أوصلت وثائق سرية أو ما أشبه ، فانه يحاول الايقاع بي » .

فألحّ « نوف » في السؤال ، مذكّراً « سكاربك » أنه اعترف قبل قليل بأن السلطات البولونية وافقت على سفرعشيقته بقصد مجاملته ومساعدته ، وقال :

« فماذا فعلت ؟ هل خدعتهم ؟ لا أقول إنك بعتهم شيئاً ، ولكن ماذا فعلت لتتفادى البيع ؟ »

فقال سكاربك : « لقد بدأت أغضب ! »

فأجابه نوف : « إن غضبك لن يحل مشكلتك .. لقد أحرجت قليلاً ! »

فقال سكاربك : « لا بل أحرجت كثيراً »

فذكّره « نوف » مرّة أخرى بأنه لا بدّ وأن قدّم شيئاً ثميناً لقاء جواز سفر الفتاة .

فتنهد « سكاربك » ثم قال : « نعم .. وثيقة سرّية »

وبعد ثلاث ساعات ونصف اعترف « سكاربك » بما كان يخشاه رجال الأمن أكثر من أي شيء آخر . وكانت الوثيقة التي اعترف باخراجها من السفارة تقريراً كتبه السفير شخصياً عن سياسة الولايات المتحدة نحو بولونيا خلال السنوات الأربع الماضية ، مع تقييمه الشخصي

وبعد ذلك اعترف أيضاً بإيصاله معلومات من وثائق أخرى . بينها تقرير أعدّه . الملحقون العسكريون في السفارة بإشراف السفير عن تخميناتهم لمدى فعالية القوّات المسلحة البولونية . وتقرير سرّي عن مطار بولوني جديد قرب حدود تشيكوسلوفاكيا .

وكان « سكاربك » يؤكد في كل مرّة أنه لم يعط البولونيين شيئاً يسيء إلى أمن بلاده وسلامتها ، وأنهم كانوا يضغطون عليه كثيراً للحصول على معلومات أخرى حساسة ، وعلى مفاتيح الشيفرة، فكان يتهرّب من ذلك . ولكن رجال الأمن كانوا يرون غير هـــذا الرأي . فالمعلومات التي اعترف «سكاربك» بإيصالها تكفي لالحاق أضرار جسيمة بسياسة الولايات المتحدة ، لأنهـــا ستعرّف البولونيين بخطط السفير الأمريكي ومقترحاته للتأثير في سياسة بولونيا ، وبما يعرفه الأمريكيون وما يجهلونه عن قوّاتهم المسلحّة وبمدى نفوذ وسائل الاستخبارات الأمريكية وتغلغلها .

وبينما كان استجواب « سكارباك » مستمراً ، تلقى « فاربر » في الغرفة المجاورة مخابرة تلفونية من الشرطة ، حيث كانت الفتاة البولونية تستجوب أيضاً ، وترفض الادلاء بشيء . فاقترح أحد الموظفين الذين كانوا إلى جانبها أن يكلمها « سكاربك » فتناول التلفون ، وفي صوت أشبه بالنشيج ، طلب اليها أن تقول الحقيقة .

وفي المقرّ العام للشرطة ، كان الشرطي « كوردز » — صديق سكاربك — يدلي بكل ما يعرف ، ولكنه لم يعرف طبعاً علاقة «سكاربك» بالاستخبارات البولونية ، فاعترف بأنه هو الذي أرسل البرقية الملفقة على لسان الأخ الوهمي الذي كان على فراش الموت ، واعترف بمساعدته سكاربك في بعض تدابيره الأخرى ، لأنه فهم أن الدبلوماسي الأمريكي كان يحب الفتاة ، ويروم الزواج منها . وقال إنه قام بكل ما قام به لأن لسكاربك فضلا كبيراً عليه في الأيام الماضية ، عندما كانا يعملان في مكتب المندوب السامي ، بما في ذلك شراؤه الحليب لطفلته من الحوانيت الأمريكية .

أما استجواب « سكاربك » فقد استغرق عشر ساعات ونصفاً تقلب خلالها إلى متحدث لبق ، ولم يترك شيئاً لم يذكره . وعندما فرغ من كلامه . اتصل « نوف » بواشنطن تلفونياً ، وقال لرؤسائه في وزارة الخارجية :

« إن صاحبنا اعترف بكل شيء ، وتحقق أسوأ الاحتمالات ، فماذا أصنع بعد هذا ؟ »

فكان الجواب :

« اجلبه إلى واشنطن واحضر معه » .

ولما قيل لسكاربك إنه مطلوب في واشنطن وافق على السفر دونما تردد . وسافر معه « نوف » وموظف آخر ، فوصلوا العاصمة الأمريكية في ٦ حزيران ١٩٦١ ، وفي ١٠ حزيران أصدر وزير الخارجية أمراً بسحب يده من الخدمة . وفي صباح ١٣ حزيران ، بينما كان « سكاربك » خارجاً من الفندق الذي نزل فيه، وهو قريب من وزارة الخارجية، أوقفه في الشارع اثنان من رجال الأمن، وألقيا القبض عليه، ووضعا في يده السلاسل .

وبدأت محاكمة « سكارباك » في ٣ تشرين الأول ، وحين سئل في المحكمة أمذنب هو أم بريء أجاب انه بريء .

وتليت مطالعة المدعي العام المعززة بوثيقة مكتوبة اعترف فيها سكارباك بالتهم الموجهة اليه ، كما أبدى فيها انه عاد إلى بلاده راغباً لا مكرهاً ، وقال « السجن في بلادي أحبّ اليّ من حياة رخيّة في بلد آخر » .

إن التهم التي وجهت إلى « سكاربك » ، وهي تزويد دولة أجنبية بثلاث وثائق سرّية على الأقل ، كانت تقضي بمعاقبته بالسجن لمدة عشر سنوات ، وغرامة قدرها عشرة آلاف دولار ، عن كل منها ، ويمكن أن تكون عقوبات السجن متداخلة أو متعاقبة حسب تقدير المحكمة .

واستدعي للشهادة السفير الأمريكي في فرصوفيا« جاكوب بيم » ،

والفتاة البولونية « اورسولا ديتشر » ، والشرطي الالماني « فريتز كوردز » وثلاثة من موظفي السفارة في فرصوفيا، إلى جانب « نوف » ، كما حضرت من المانيا زوجة « سكارباك » .

وقال السفير « بيم » في شهادته إن « سكارباك » كان موظفاً على درجة عالية من الكفاءة ودؤوباً على العمل .

وشهد زملاء « سكارباك » الثلاثة بأنهم شاهدوه يقرأ الوثائق في اضبارة السفارة السرّية ، وانهم لاحظوا أن اهتمامه بقراءتها بدأ في كانون الثاني ١٩٦١ .

وكرر الشرطي الالماني « كوردز » ما أفاد به في التحقيق الاوّلي في فرانكفورت .

أما الفتاة البولونية فقد سردت قصة علاقتها بالدبلوماسي الأمريكي منذ بدايتها ، حتّى مداهمتهما ، وما تبع ذلك من تهديدات واغراءات لها ولعشيقها .

وبذل محامي « سكارباك » جهوداً كبيرة في الدفاع عنه ، فادّعى أولاً أن موكله لم يرتكب المخالفات التي نسبت اليه راغباً ، وأن الحكومة تحاول إظهار القضية بمظهر عملية بسيطة قام بها شخص عن عمد، لخرق الأنظمة والقوانين بصورة صارخة. وتحدّث عمّا تعرّض له موكله من ضغط لا يطاق ، وعن العواطف والحالات النفسية التي تملي على الانسان تصرّفاته ، وتوجّه تجاربه في الحياة .

ثم ناقش المعلومات التي تضمنها تقرير السفير (وهو إحدى الوثائق السرّية التي اتهم « سكارباك » بايصالها) فقال إن تلك المعلومات أمور معروفة لأي شخص مثقف حسن الاطلاع على الشؤون الدولية ، وليس في إفشائها ما يسيء إلى مصالح البلاد . وطلب مناقشة التقرير صفحة صفحة ، وفقرة فقرة ، ليثبت للمحكمة انه لا يتضمن أية معلومات سرية أو حقائق غير معروفة ، أو معلومات يسيء تسرّبها إلى سلامة البلاد . وان مجرّد وصف السفير تقريره بأنه سرّي ، لا يكسبه هذه الصفة بالضرورة . فاعترض ممثل الحكومة على هذا الطلب وأخذت

المحكمة باعتراضه .

وأجاب المحامي عمّا أفاد به الشهود من اهتمام سكاربك بقراءة الوثائق ، بأن السفير كان يحث الموظفين جميعاً على قراءة الوثائق والتقارير السرّية ، وان ما قام به موكله لم يكن بدعاً من الأمر ، كما أن ما أفضى به لا يزيد عن المعلومات التي يتبادلها الدبلوماسيون في حفلات الكوكتيل .

وأخيراً قال إن سكاربك كان مدفوعاً بدوافع انسانية لانقاذ الفتاة التي أحبها ، وانه كان يحارب محاولات التهديد والتشهير . وان مما يدل على حسن نيتّه ووثوقه من براءته هو قبوله العودة إلى بلاده بمجرّد استدعائه ، بينما كان في مقدوره أن يبقى في المانيا ، أو يطلب اللجؤ إلى بولونيا .

واستغرقت المحاكمة ثلاثة أسابيع ، استمع المحلّفون خلالها إلى الشريط الذي سجّل في صوت « سكاربك » قصة غرامه وخيانته .

وفي ٢٧ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٦١ أدان المحلفون « سكاربك » بالتهم الثلاث التي وجهت اليه — وهي ايصال وثائق سرّية إلى دولة أجنبية — وأصدرت المحكمة حكمها بأقصى العقوبة ، وهي السجن لمدة ثلاثين عاماً ، ولكنها لم تحكم عليه بالغرامة ، فبادر محاميه وأعلن انه سيستأنف الحكم .

وقالت زوجة « سكاربك » — التي كانت تصغي مطرقة إلى عشيقة زوجها وهي تصف ليالي غرامهما بتفاصيلها — إنها ستقف إلى جانب زوجها ، لأنها واثقة من براءته وحسن نيته .

أما الفتاة البولونية « أورسولا » فقد خيرّت بين البقاء في أمريكا أو العودة فاختارت العودة إلى بلادها . هكذا ذهبت سدى جميع محاولات سكاربك لاخراجها من هناك ، بما في ذلك خيانته بلاده من أجل جواز سفر .

وأبرم حكم المحكمة ، ودخل سكاربك السجن ، فنسيه الناس بعد أيام ، ولم يعد أحد يسمع عنه شيئاً ، او يتحدّث عن قضيته التي

ملأت الصحف وشغلت أمريكا شهوراً ..

وفي نيسان سنة ١٩٦٦ ، نشرت جريدة « نيويورك تايمس » خبراً صغيراً متوارياً بين أعمدتها ، لم يلتفت اليه الكثيرون ، جاء فيه :

« تقرر إعفاء ايرفين سكاربك (٤٥ سنة) عمّا تبقى من محكوميته . وقد مضت على سكاربك في السجن أربع سنوات ونصف . وقد حكم عليه بثلاث تهم عقوبة كل منها عشر سنوات ، لتزويده دولة أجنبية بمعلومات ووثائق سرّية خلال عمله سكرتيراً ثانياً في سفارة الولايات المتحدة في فرصوفيا. وقد صدر هذا الحكم بعد محاكمة أثارت ضجة كبيرة ، واستمعت فيها المحكمة إلى شهادة عشيقته البولونية » .

وكان هذا الخبر آخر ما نشرته الصحف عن قصة الدبلوماسي الامريكي وغرامه .

قصة رسالة

في مساء ٢٠ مايس ١٩٦٣ وصلتني – وأنا في مكتبي في السفارة العراقية بواشنطن – جريدة « ايفنينك ستار » ، وهي من أوسع جرائد العاصمة الأمريكية انتشاراً ، أو أوسعها جميعاً ، فلما تصفّحتها رأيت فيها صورة للسيدة « ليندن جونسن » زوجة نائب رئيس الجمهورية – يومذاك – ومعها « كارل فريمان » أحد الصهيونيين الأمريكيين المعروفين . وكان إلى جانب الصورة الخبر الآتي :

« قبلت السيدة ليندن جونسن الرئاسة الفخرية لحفلة – بالو – ستقام بمناسبة (استقلال) اسرائيل . وقد أعلن ذلك المستر كارل فريمان رئيس الاحتفال .

« وسيقام الاحتفال السنوي لدولة اسرائيل ، في الذكرى الخامسة عشرة لانشائها ، برعاية السفير الاسرائيلي وزوجته ، في ٩ حزيران ، في فندق شيراتون بارك .

« وقد صرّحت السيدة جونسن بمناسبة قبولها الرئاسة الفخرية قائلة : لقد دفعني إلى قبول هذا الشرف ما قامت به اسرائيل من دور كملاذ للكثير من المشرّدين والمضطهدين الذين اقتلعت جذورهم في كارثة الحرب العالمية الثانية ، وبسبب الخطوات المشهودة التي قطعتها في سبيل إقامة مجتمع منتج ديمقراطي مستقر ، عن طريق جهود شعبها المخلص النشيط ، وبمساعدة أصدقائها في كل مكان » .

وجلست أفكر ، وأنا أتأمل الصورة .

زوجة نائب رئيس الجمهورية ، الشخص الثاني في الولايات المتحدة ، تشيد — جادة غير هازلة — بدور اسرائيل كملاذ للمشردين والمضطهدين ..

هل يمكن أن يكون ذلك عن جهل بحقائق الأمور ، وهي واضحة لا لبس فيها ولا تعقيد ؟

وكم من الأمريكيين يشاركون هذه السيدة جهلها أو تجاهلها ؟ وكم من البسطاء والسذج ، وأنصاف المتعلمين ، وطلاب المدارس ممن لا يعرفون تفاصيل القضية وأولياتها البسيطة ، سيرسخ في أذهانهم هذا التصريح المضلل ؟ وكم من الأمريكيين لهم القدرة على إعادة النظر في موقفهم من إسرائيل ، ويصحح آراءه عنها إذا وضعت الحقائق أمامه مبسطة عارية ؟

وتساءلت في نفسي : ماذا يستطيع ممثل عربي بمفرده ، أو الممثلون العرب مجتمعين أن يقوموا به لافهام هذه المرأة الجاهلة ، أو المتجاهلة ، حقيقة إسرائيل وكيفية قيامها ، وسبب عدم مشروعيتها ، وما ارتكب لأجل إقامتها من جرائم ؟

هل أثير الموضوع في اجتماع رؤساء البعثات العربية ؟

ومتى سيجتمع رؤساء البعثات العربية ؟ لقد كانت هنالك اجتماعات دورية يعقدونها لبحث القضايا المشتركة ، وتنسيق موقفهم منها ، وتحقيق نوع من التعاون في معالجتها ، ولكن تلك الاجتماعات المفيدة انقطعت منذ مدة ..

ولو افترضت أنني اقترحت عقد اجتماع للسفراء العرب ، فماذا ستكون النتيجة ؟ سيناقش الموضوع ، وسيتشعب ، وستطرح فيه آراء مختلفة ، متضاربة ، وسنخرج من الاجتماع دونما نتيجة ، وستفوت المناسبة — كما فاتت مناسبات كثيرة قبلها — في إثارة القضية ، وإيضاح موقف العرب منها ، ليس للسيدة جونسن وحدها ، وانما للرأي العام الأمريكي .

ومرت ساعات وأنا أتقلب من رأي إلى رأي ، وأتحول من

قرار إلى قرار . ولكن ، كان لا بدّ من القيام بعمل .

هل أتصّل بالسيدة جونسن ، أو سكرتيرتها ، تلفونياً ، وأطلب موعداً لزيارتها ، ثم أشرح لها القضية باختصار ، وأفهمها ما لعملها هذا من وقع سيء على العرب ، وما به من إساءة حتى لمصلحة بلادها ؟

ولكن هل من المألوف أن يطلب الممثل الدبلوماسي موعداً لزيارة زوجة أحد المسؤولين ؟ لقد كان تنفيذ هذه الفكرة — أو ما يقرب منها — ممكناً لو كانت لي زوجة تقوم بهذه الزيارة ، وتنتهز الفرصة لاثارة الموضوع ، ولكنني كنت عازباً .

هل أهديها كتاباً عن قضية فلسطين فيه عرض موضوعي — لكاتب محايد — يبين تاريخ القضية ، وكيفية قيام اسرائيل ؟

يقول مثل انكليزي مشهور : إنك قد تستطيع أن تقود الحصان إلى الماء ، ولكنك لا تستطيع أن تكرهه على الشرب . وعلى هذا القياس فانني استطيع أن أهديها عشرة كتب ، لا كتاباً واحداً ، ولكن كيف أضمن قراءتها اياها ؟

وخطرت لي فكرة .

لماذا لا أكتب إلى السيدة جونسن رسالة رقيقة مهذبة ، وأضع أمامها بعبارات واضحة مغزى المناسبة التي سترأس الاحتفال بها ، وأطلب اليها أن تسحب اسمها من هذا الاحتفال الشائن ؟ اذ لا شك في انها ستقرأ رسالة تردها من ممثل دولة أجنبية ، ولن يكون في هذا العمل خروج كبير على قواعد الدبلوماسية أو المجاملة .

فاذا « تسرّبت » محتويات الرسالة بعد ذلك إلى الصحف ، قامت حول القضية الضجة المطلوبة ، واتيحت الفرصة لحمل الصحافة الأمريكية — المتحيزة لاسرائيل عادة — على ترديد وجهة النظر العربية ، ونقلها إلى القراء .

ورأيت أن امضي في تنفيذ هذه الفكرة قبل فوات الأوان ، فاذا شاركني في موقفي آخرون من زملائي أمكن قيامهم بذلك فيما بعد ، والمهم الآن عدم ترك الخبر يمرّ دون اظهار شيء من الاحتجاج عليه ،

العربية . وقد جعلت الكتابين على شكل رزمة مغلّفة بورق من أوراق الهدايا ، وأرسلتهما مع الرسالة إلى دار نائب رئيس الجمهورية .

وفي الوقت نفسه أرسلت صورة الكتاب إلى سفراء الدول العربية لاطّلاعهم ، ولتنبيه من لم ينتبه منهم إلى الخبر سهواً .

وبعد أيام قلائل جعلت محتويات الرسالة « تتسرّب » إلى الصحف ، وهي عادة تتصيّد أخبار زوجة نائب رئيس الجمهورية ، وتحاول نشر كل صغيرة وكبيرة عنها . وصدق ما توقعت ، وصدرت جريدة « واشنطن بوست » صباح ٢٥ مايس ١٩٦٣ وفيها مقالة بعناوين كبيرة بارزة : « ممثل عربي يطلب إلى ليدي بيرد (وهو اسمها الأول) التخلي عن منصب في حفلة اسرائيل » ، وتبدأ المقالة بهذه الفقرة :

« كان قبول السيدة ليندن ب. جونسن رئاسة الشرف لحفلة البالو المقرر اقامتها بمناسبة استقلال اسرائيل في ٩ حزيران مثار انتقاد شديد من ممثل إحدى الدول العربية هنا ، وهو القائم بالاعمال العراقي » .

وتمضي المقالة في تلخيص الرسالة واقتباس معظم فقراتها . دون تعليق .

وبقيت انتظر ردة الفعل .

وقد علمت بعد ذلك أن السيدة جونسن كانت خارج واشنطن يوم وصول رسالتي إلى دارها ، وانها كانت في تكساس تحضر حفلة تخرّج في مدرسة ثانوية كان زوجها — وهو أحد خريجيها — سيلقي خطاباً فيها .

وفي مساء ذلك اليوم (٢٥ مايس) كنت مدعوّاً إلى حفلتين ، إحداهما في السفارة الأرجنتينية ، والأخرى في السفارة الأردنية — وكلتاهما بمناسبة العيد الوطني — وكنت أعلم أنني سأفهم في هاتين الحفلتين وقع الرسالة التي نشرت ذلك اليوم ، وأسمع التعليقات المختلفة عليها . فذهبت الى السفارة الأرجنتينية أولاً . وبعد أن مكثت فيها مدة من الزمن ، قصدت السفارة الأردنية . وصدرت جريدة « واشنطن بوست » صباح اليوم التالي وفيها مقالة تصف حفلتي الليلة

أو الاستياء منه ، بصورة فورية . أما انتظار اجتماع الممثلين العرب ، واتخاذهم قراراً موحّداً في مسألة مفروغ منها فليس من شأنه سوى تأخير الأمر .

وكتبت الرسالة إلى السيدة جونسن ، فاستهللتها بأنني صعقت وأصبت بخيبة كبيرة حين قرأت في صحف واشنطن أمس قبولها الرئاسة الفخرية لتلك الحفلة . ثم قلت « إن ممثلي الدول العربية هنا يشاركونني صدمتي » . ولم تكن فرصة المداولة مع أحد منهم قد أتيحت لي – بطبيعة الحال – ولكنني وضعت هذه العبارة لعلمي أنه أمر لا يختلف فيه عربيّان ، وللدلالة على أن رسالتي لا تمثل رأيي وحده ، ولا تعبّر عن موقف العراق وحده ، وانما تعكس شعور العرب جميعاً .

وبعد أن أثنيت على نشاط السيدة جونسن في الجمعيات الخيرية التي تسهم فيها ، انتقلت إلى الموضوع فقلت – ما ترجمته – :

« .. وإنك بقبولك الرئاسة الفخرية لحفلة إسرائيل قد روي على لسانك أن الدافع الذي حملك على قبول هذا (الشرف) كان الدور الذي قامت به إسرائيل كملجأ وملاذ للمشرّدين والمضطهدين الذين اقتلعت الحرب العالمية الثانية جذورهم ، وتركتهم بلا مأوى ..

« اننا لا نستطيع أن ننسى أن اسرائيل أنشئت عن طريق اغتصاب أرض شعب آخر بالقوة ، وقامت بواسطة تشريد مليون عربي من وطنهم ، واقتلاع جذورهم وتركهم بلا مأوى .

« إننا نؤمن إيماناً قوياً بأن مجرد وجود اسرائيل في قلب وطننا هو أعظم خرق حيّ للقانون الدولي ، وأكبر إهانة لروح الأمم المتحدة وميثاقها . إنه رمز للاستهانة بجميع المبادىء الانسانية ، بما فيها مبدأ تقرير المصير الذي قدّمه إلى العالم أمريكي عظيم ، وديمقراطي كبير ، وهو وودرو ويلسن .

«هي نفسك مبعدة عمّن تحبين بسبب نكبة سياسية . وقد أصبحت بين ليلة وضحاها بلا وطن ولا فلس ، وعندئذ ستقدّرين شعورنا وعواطفنا . كما ستفهمين سبب صدمتنا وخيبتنا .

« إن السفارات العربية الثلاث عشرة في واشنطن تحتفل بأعيادها الوطنية في كل سنة باقامة حفلات تُدعيَن إلى كل واحدة منها . واننا كنا نسعد برؤيتك فيها . ولكن عدم حضورك واحدة منها حتى الآن ، ثم قبولك مثل هذا الدور الرئيسيّ في احتفال إسرائيل يعطي انطباعاً عن تحيّز أنا واثق بأنك لم تقصديه .

« وانك . بصفتك السيدة الثانية في البلاد فان سمعتك ونفوذك يمتدان خارج حدود الولايات المتحدة .

« ولهذا السبب فانني أناشدك أن تفكري في شعور مئة مليون عربي حين يسمعون بتأييدك ودورك في حفلة (استقلال اسرائيل) !

« أناشدك أن تستبقي الصورة الجميلة التي لدينا عنك : تلك الصورة التي تمثل العطف والعدالة والمساواة .

« إناشدك أن تحتفظي بهذه الصورة ، بأن تسحبي إسمك الطيّب ورئاستك من احتفال معناه الاحتفال بالعدوان والفظائع ضد شعبنا .

« وأقدّم اليك مع كتابي هذا ... الخ »

وأرفقت بالرسالة كتابين : أولهما مجموعة من الصور الفوتوغرافية تمثل حالة اللاجئين الفلسطينيين العرب التقطها مصور سويدي في مخيماتهم ، ونشرها في كتاب حسن الاخراج جيد الطبع بعنوان « إنهم بشر أيضاً » ، والثاني تقرير « الجنرال بنيكا » رئيس أركان لجنة مراقبة الهدنة في فلسطين ، وهو تقرير معزز بالصور الفوتوغرافية ، كتبه محايد . يتضمن تفاصيل الفظائع التي ارتكبها الصهاينة في القرى

العربية . وقد جعلت الكتابين على شكل رزمة مغلّفة بورق من أوراق الهدايا ، وأرسلتهما مع الرسالة إلى دار نائب رئيس الجمهورية .

وفي الوقت نفسه أرسلت صورة الكتاب إلى سفراء الدول العربية لاطّلاعهم ، ولتنبيه من لم ينتبه منهم إلى الخبر سهواً .

وبعد أيام قلائل جعلت محتويات الرسالة « تتسرّب » إلى الصحف ، وهي عادة تتصيّد أخبار زوجة نائب رئيس الجمهورية ، وتحاول نشر كل صغيرة وكبيرة عنها . وصدق ما توقعت ، وصدرت جريدة « واشنطن بوست » صباح ٢٥ مايس ١٩٦٣ وفيها مقالة بعناوين كبيرة بارزة : « ممثل عربي يطلب إلى ليدي بيرد (وهو اسمها الأول) التخلي عن منصب في حفلة اسرائيل » ، وتبدأ المقالة بهذه الفقرة :

« كان قبول السيدة ليندن ب. جونسن رئاسة الشرف لحفلة البالو المقرر اقامتها بمناسبة استقلال اسرائيل في ٩ حزيران مثار انتقاد شديد من ممثل إحدى الدول العربية هنا ، وهو القائم بالاعمال العراقي » .

وتمضي المقالة في تلخيص الرسالة واقتباس معظم فقراتها ، دون تعليق .

وبقيت انتظر ردة الفعل .

وقد علمت بعد ذلك أن السيدة جونسن كانت خارج واشنطن يوم وصول رسالتي إلى دارها ، وانها كانت في تكساس تحضر حفلة تخرّج في مدرسة ثانوية كان زوجها — وهو أحد خريجيها — سيلقي خطاباً فيها .

وفي مساء ذلك اليوم (٢٥ مايس) كنت مدعوّاً إلى حفلتين ، إحداهما في السفارة الأرجنتينية ، والأخرى في السفارة الأردنية — وكلتاهما بمناسبة العيد الوطني — وكنت أعلم أنني سأفهم في هاتين الحفلتين وقع الرسالة التي نشرت ذلك اليوم ، وأسمع التعليقات المختلفة عليها . فذهبت الى السفارة الأرجنتينية أولاً . وبعد أن مكثت فيها مدة من الزمن ، قصدت السفارة الأردنية . وصدرت جريدة « واشنطن بوست » صباح اليوم التالي وفيها مقالة تصف حفلتي الليلة

الماضية ، وكان وصف أولاهما يتضمن الفقرة الآتية :

« ... وعندما دخل القائم بالأعمال العراقي ، انقلب موضوع الحديث في كثير من الحلقات إلى رسالته إلى السيدة جونسن التي اقترح فيها انسحابها من الرئاسة الفخرية لحفلة إسرائيل السنوية ، والتي كانت هذه الجريدة نشرت محتوياتها صباح ذلك اليوم .. »

أمّا في السفارة الأردنية ، حيث يزيد عدد المدعوين العرب والمعنيين بالشؤون العربية ، فكانت الرسالة على لسان كل من قابلته فيها . وكان صديقي « مستر هاوار » [1] أكثر المدعوين تحمساً للرسالة وسروراً بها . وكان يحمل قصاصة الجريدة بيده ، يدور بها على المدعوين ، ويقرأها على من لم يقرأها منهم .

وفي زاوية قصية من الحديقة قابلت المستر « فيليبس تالبوت » مساعدوزير الخارجية لشؤون الشرق الأوسط وجنوبي شرقي آسيا ، وهو رجل مهذب واسع الثقافة ، واستاذ سابق . فبادرني بالتحية، ثم فاتحني في موضوع الرسالة قائلاً :

« إن الرسالة ، وخاصة تسرّبها إلى الصحف ، احدثت صدى كبيراً بين أعضاء الكونغرس الصهيونيين ، مما سبب إحراجاً لوزارة الخارجية . وقد وجّه السناتور « سكوت » عضو مجلس الشيوخ (وهو من المعروفين بتأييدهم القويّ وتحيزهم لاسرائيل) رسالة إلى المستر دين رسك ، وزير الخارجية ، محتجاً على رسالتك ، ومتسائلا هل هي تنسجم مع العرف الدبلوماسي . وهو يطالب باجراء تحقيق في الموضوع ، فاضطررنا إلى إعداد مسودة بيان يصدر عن وزارة الخارجية بشأن الرسالة ، وقد طلبت إلى المستر بلاكستون — المسؤول عن الشؤون العراقية — إحضاره معه إلى هذه الحفلة لعلمي انك ستكون موجوداً

---

(١) هو السيد محمد عيسى أبو الهوى ، مغترب عربي من فلسطين في حوالي الثمانين من عمره ، هاجر الى امريكا سنة ١٩٠٣ وهو في الثالثة عشرة ، واتخذ له اسم «جوزيف هوار» وأصبح بكده وعصاميته من كبار رجال الأعمال والملاكين في العاصمة الأمريكية ، ولم تضعف غربته وابتعاده عن وطنه أكثر من ستين عاماً من شعوره العربي .

فيها حتماً، فأرجو أن تطّلع عليه قبل اصداره، واخباري برأيك فيه ».
ثم أضاف قائلاً :

« ليت الأمر كله لم يحدث »

قلت : « تقصد في مرحلته الأولى طبعاً » (وكنت أعني قبول السيدة جونسن رئاسة الحفلة) .

فقال « تالبوت » مبتسماً : « ومرحلته الثانية أيضاً ! »

وخلال هذا الحديث ، كان بعض المدعوّين الذين يمرّون بجانبنا – من عرب وأمريكيين – يقاطعوننا من وقت لآخر محيين ، ويعربون عن اعجابهم بفكرة الرسالة وما تضمّنته . ومرّت « مولي ثاير » – وهي صحفية قديمة وسيدة مرحة معروفة بمحبتها للعرب – فحيّتني من بعيد ملوّحة بيدها في حماسة ظاهرة ، وصاحت بأعلى صوتها :

« نعم ما فعلت ! »

ولعلها قامت بذلك بقصد إسماع المستر تالبوت ، فقلت له :

« أرأيت ؟ إن هؤلاء أمريكيون وليسوا عرباً »

وحضر المستر بلاكستون حين رآني مع مساعد وزير الخارجية ، وأخرج من جيبه مسودة البيان ، وكان يقول : « إن السيدة جونسن قبلت الرئاسة الفخرية لحفلة اسرائيل بصفتها الشخصية ، وان عملها هذا لم يكن تعبيراً عن أي موقف سياسي لحكومة الولايات المتحدة . على أن وزارة الخارجية تأسف لايصال محتويات رسالة القائم بالاعمال العراقي إلى الصحف » .

قلت إنني لا اعتراض لي على الشقّ الأول من البيان ، ولكنني لا أستطيع الموافقة على الشق الثاني ، وفي حالة نشره سأكون في حل بأن أدلي للصحف بأي تصريح أجده مناسباً في الرد عليه ، ثم أضفت قائلاً : « ولو أدى ذلك إلى اعتباري شخصاً غير مرغوب فيه » وقد قلت هذه الجملة الاخيرة ضاحكاً للتخفيف من وقعها في محادثة كانت لا تزال ودّية جداً ، وان كان جوّها مشحوناً بعض الشيء .

فقال المستر تالبوت : « لا أظن أن الأمر سيصل إلى ذلك الحدّ ،

فرجائي اليك الآن تدلي إلى الصحف بأي تصريح حول هذا الموضوع . في الوقت الحاضر على الأقل ، لأن ذلك سيعقّد الأمر » .

فوعدته بذلك – ولم يصدر عن وزارة الخارجية أي بيان .

ولكن الرسالة أصبحت حديث المجتمع الدبلوماسي في واشنطن ولم تنقطع الصحافة عن الاشارة اليها ، وكنت كلما حضرت حفلة أحاط بي الصحفيون يسألونني هل وصلني جواب من السيدة جونسن ؟ وهل أعتقد أنها ستحضر حفلة اسرائيل ؟ وماذا سأصنع إذا حضرت ؟ ففي يوم ٢٧ مايس ١٩٦٣ – مثلاً – كانت السفارة الأفغانية تحتفل بعيدها الوطني ، فوردت في الخبر الذي نشرته جريدة « ايفنينك ستار » في وصف الحفلة – بعددها الصادر في ٢٨ مايس – الفقرة الآتية :

« .. ولما وصل القائم بالأعمال العراقي انهالت عليه تهاني حارة وحماسية من كثير من المدعوّين بسبب رسالته الموجهة إلى السيدة ليندن جونسن التي يطلب فيها سحب تأييدها لحفلة استقلال اسرائيل . ولما سئل هل وصله جواب من السيدة جونسن أجاب بالنفي ، وقال إنها كانت غائبة عن واشنطن ولم تعد الآن مؤخراً » .

وأخيراً وصل الجواب المرتقب ، في ٣ حزيران ١٩٦٣ ، وكان جواباً قصيراً . وعلى الرغم من الأسلوب المجامل الذي صيغ به ، كان جافاً في فحواه ، يشفّ عن مرارة ، وفي آخره حاشية ذات مغزى . ولم يكن ذلك مستغرباً ، خاصة وأن سكرتيرة السيدة جونسن وكاتبة خطبها ورسائلها ، السيدة « لز كاربنتر » كانت كاتبة قديرة ، ومعروفة بتحيزّها لاسرائيل :

« عزيزي السيد ...

« إن أيسر السبل لزوجة مسؤول في الحكومة هو – بطبيعة الحال – الآن تعير إسماً ولا يداً ولا قاباً لأي عمل خيريّ أو تذكاريّ . أوّاه ، إن رسالة كرسالتك تجعل اتباع هذا المسلك أكثر اغراء .

« ومع ذلك ، فقد حاولت دائماً – مهما كانت قيمة ذلك ضئيلة – أن أكون تحت تصرّف أكبر عدد منها دون تمييز بسبب الدين أو العرق أو المنطقة ، بما في ذلك – بكل تأكيد – كل دول الشرق الأوسط . وسأستمر في ذلك .

« مع شكري على العبارات اللطيفة التي قلتها عن جهودي الانسانية ، وأطيب تمنياتي » .

المخلصة

السيدة ليندن ب. جونسن

« حاشية : تقديراً مني بأنك تلقيت مخابرات واستفسارات حول رسالتك ، فلا مانع عندي من توزيعك محتويات هذه » .

وحضر لمقابلتي – يوم تسلمي الجواب – أحد محرري « واشنطن بوست » وأخبرني أن الصحفيين كانوا يتصلون بسكرتيرة السيدة جونسن يومياً مستفسرين هل أجابت عن الرسالة ، فقيل لهم اليوم إنها فعلت . ولما سألوا عن فحوى جوابها أحيلوا على السفارة .

ولما أطلعته على الجواب سألني عن رأيي فيه ، فاعتذرت عن الادلاء بشيء . فألحّ في السؤال ، فقلت له إنه لم يكن جواباً عمّا كتبته في رسالتي ، لأنه تجنّب الموضوع الأصلي تجنباً تاماً . وفي اليوم التالي (٥ حزيران) نشر في جريدته خبراً بعناوين كبيرة : « مسز جونسن ترفض نداء عربياً بسحب اسمها من احتفال » . وكان الخبر في مكان بارز جداً ، ويتضمن نص الجواب ، وتكراراً لفقرات من الرسالة الأصلية . وفي نهايته فقرة تقول :

« وذكر مسؤول عربي أثناء الحديث عن الرسالة ان اصوات اليهود في هذه البلاد تزيد عن أصوات العرب » .

وهذا موطن الداء .

فالمهم بنظر أمريكا هو ضمان أصوات اليهود في الانتخابات القادمة ، بسبب أهمية تلك الأصوات في بعض الولايات التي يتركّزون

فيها . أمّا عدالة القضية أو ما فيها من جور فايس لها من حسابهم مكان . وذلك كان الباعث الرئيسي للسيدة جونسن في تبني الحفلة ، وليس بالضرورة عطفها الخاص على اسرائيل التي قد لا تعرف اين تقع .

وقد تناقلت الصحف الأمريكية موضوع الرسالة ، وأرسل إليّ الطلاب العراقيون قصاصات من صحف تصدر في شيكاغو وديترويت وسان فرانسيسكو وأريزونا ، وفي بعضها سرد للحادث دون تعليق ، ومقتطفات من الرسالة وجوابها ، وفي بعضها الآخر تحامل شديد على العرب ، واستنكار لمحاولة ممثل دولة أجنبية أن « يملي » على السيدة الثانية في البلاد تصرّفاتها . وقد قدّر بعض أصدقائي من الصحفيين أن عدد الصحف الأمريكية التي كتبت عن القضية يزيد عن مئة وخمسين جريدة ومجلة تصدر في شتى مدن الولايات المتحدة .

ووصلتني بالبريد ، من العرب المقيمين في مدن أمريكية مختلفة ، ومن أمريكيين لا أعرفهم ، رسائل كثيرة يعربون فيها عن ارتياحهم لرسالتي ، وأرفقوا ببعضها قصاصات من صحف تصدر في المدن التي يقيمون فيها تحتوي على ما كتبته عن الموضوع . كما وصلتني رسائل أخرى ، بدون توقيع ، مليئة بالسباب البذيء ، كان مرسلوها — بطبيعة الحال — صهاينة جبناء .

ولن أنسى ما همس به في أذني في إحدى الحفلات — بعد الحادث بأيام — موظف فيوزارة الخارجية ، قائلاً : « إن ردّة الفعل التي أحدثتها رسالتك كانت قويّة لأنك ضربتهم في مكان موجع » .

وحلّ يوم ٩ حزيران ، وهو موعد الحفلة .

وترقّبت صحف اليوم التالي ، لأرى ما ستكتبه عنها . فلما وصلت « واشنطن بوست » في الصباح الباكر ، كانت تحمل مقالة على أربعة أعمدة من الجريدة بعنوان كبير : « في حفلة استقلال اسرائيل — الجوّ المرح يزيل وقع الاحتجاجات العراقية » . وكانت المقالة وصفاً مزوّقاً للحفلة يتضمّن أسماء بعض الشخصيات المعروفة التي حضرتها ، وأوصافاً لملابس بعض السيدات ، مع صور التقطت

خلال الحفلة . وكانت في المقالة إشارة إلى أن احتجاجات القائم بالأعمال العراقي لم يبق لها أثر في جو المرح الذي ساد الحفلة . ولكن ، كانت فيها أيضاً فقرة تقول :

« ... ومع ذلك ، فان السيدة جونسن لم تتمكن من الحضور بسبب ارتباطها بموعد في ولاية ماساشيوستس بصحبة نائب رئيس الجمهورية ، وقد سبق أن أخبرت لجنة الاحتفال بذلك . وقد اتصلت السيدة جونسن تلفونياً معتذرة ، ومؤكدة أنها لا تزال تؤيد الاحتفال » .

ولكن حضور السيدة جونسن أو عدم حضورها لم يكن ليغير الأمر كثيراً ، فقد نال الصهاينة بغيتهم حين جعلوا الحفلة تحت رعايتها ، ووضعوا اسمها على بطاقاتها لترويجها . وانني لم أوجه رسالتي – في الحقيقة – لأثنيها عن الحضور ، بل كان المهم في الأمر حمل الصحافة الأمريكية على ترديد وجهة النظر العربية بشكل واسع جداً ، لأن الموضوع يستثير انتباه الناس لتعلقه بزوجة نائب رئيس الجمهورية ، وقد نلت بغيتي هذه . ومن جهة أخرى فان مثل هذه الضجة كان من شأنها تنبيه غيرها من الشخصيات المعروفة ممن يحاول دعاة اسرائيل الاستعانة باسمائهم للحصول على تأييد الجماهير وتبرعاتها ، وجعلهم يترددون ويفكرون ملياً قبل الموافقة على تبني أية مناسبة اسرائيلية ، مخافة إثارة ضجة جديدة من جانب العرب هم في غنى عنها .

وبعد أيام قلائل كنت أستعد لاقامة حفلة السفارة السنوية بمناسبة الذكرى الخامسة لثورة ١٤ تموز فتأكدت من وجود اسم نائب رئيس الجمهورية والسيدة جونسن على قائمة المدعوين ، وتعمدت أن ترسل بطاقتهما إلى منزلهما وليس إلى مكتب المستر جونسن . وبعد توزيع البطاقات بيومين تسلمت من سكرتيره كتاباً يبلغني فيه شكر نائب رئيس الجمهورية على الدعوة واعتذاره عن الحضور لارتباطه بموعد سابق خارج واشنطن . ويضيف الكتاب ان السيدة جونسن ستكون غائبة عن واشنطن أيضاً ، ولذلك فانها تأسف لعدم تمكنها من الحضور .

اشباح في سفارة تونس

تقوم السفارة التونسية في موسكو في ساحة كبيرة ، وعلى زاوية شارع من أعرض شوارع العاصمة السوفيتية ، وهو « اوليتزا كاجالوفا » ، وترتفع جدرانها الضخمة اشبه بالسور المنيع .

ولما تسلمت — بعد وصولي موسكو بمدة قصيرة — دعوة لحضور الحفلة التي سيقيمها السيد فتحي زهير ، سفير تونس في موسكو ، بمناسبة استقلال بلاده في أول حزيران ، كان سروري عظيماً . ولم أشك في أن هذه الحفلة ستكون كغيرها من حفلات الاستقبال التي تقيمها السفارات الاخرى في اعيادها الوطنية ، ولن يكون فيها جديد ، ولكنني كنت أتوق إلى مشاهدة بناية السفارة ، والتجول في قاعاتها وغرفها . ولم يكن في مظهر البناية ما يميزها عن غيرها ، او يجلب نظر الزائر الغريب . ففي موسكو مئات الابنية المشابهة لها ، والتي ابتناها على هذا الطراز الارستقراطيون الروس في العهد القيصري . ولكن هذه البناية بالذات لها تاريخ خاص ، وهي قد حفلت بما قل أن حفل به غيرها من الأبنية . فقد كانت مسكن « بيريا » ، الرجل الثاني في الاتحاد السوفيتي بعد ستالين ، من حيث سلطاته ، ومن حيث خوف الناس منه ورهبتهم اياّه .

كان « لافرنتي بافلوفيج بيريا » ماريشال الاتحاد السوفيتي ، ووزير داخلية ستالين ، ورئيس جهاز الشرطة السرية ، والحاكم المطلق في تلك الدولة القائمة داخل دولة ، والرجل الذي اقترن اسمه

بتنفيذ الارهاب الستاليني ، ومعسكرات الاعتقال في سيبيريا ، ومحاكمات التطهير . وعندما تم تطهير بيريا نفسه في سنة ١٩٥٣ ، على اثر موت ستالين ، بقيت الدار مهجورة لمدة طويلة ، حتى تسلمتها أخيراً دائرة مساعدة الهيئات الدبلوماسية (الاوبديكا) وهي دائرة تابعة لوزارة الخارجية ، تقدم خدمات خاصة لاعضاء الهيئات الدبلوماسية الاجنبية ، بينها تخصيص دور السكن ، وتزويد السفارات بالمترجمين والخدم وغير ذلك .

وعندما افتتحت تونس سفارة لها في موسكو ارتأت دائرة « الاوبديكا » أن تخصص لها مسكن بيريا السابق . وكان في البناية الضخمة من المرافق ما يستوعب مكاتب السفارة ، ومسكن السفير الجديد « أحمد مستيري » وزوجه وطفليه .

ولم تمر على انتقال السفير إلى البيت مدة طويلة الا كانت زوج السفير تحدث صديقاتها انها تسمع في الليل أصواتاً غريبة : صرخات ، وأنيناً ، ونشيجاً ، تتخللها قهقهات عالية . وأقسمت زوج السفير أيضاً أنها استيقظت من نومها في إحدى الليالي ، فظهرت أمامها امرأة تتلفع بشفوف بيضاء ، وحذرتها من البقاء تحت سقف تلك الدار إذا كانت تحرص على حياتها وحياة اطفالها .

وقد حاول السفير – وهو شاب ذو ثقافة عالية ، ومتخرج من السوربون – ان يقنعها بان ما رأته لم يكن غير أوهام باطلة اوحتها كثرة ما سمعت عن تاريخ البناية وسكانها من قصص حقيقية وخيالية . ولكن فاجعتين متتاليتين حدثتا في السفارة ، فازدادت اقتناعاً أن النحس يخيم على المكان .

ففي ربيع سنة ١٩٦١ سقط طفل الوزير المفوض في السفارة ، أحمد عرفة ، من شباك شقته في الطابق السادس ، ولقي حتفه على الفور . وبعد ذلك باسابيع قلائل ، بينما كان القنصل ، شاذلي شاوش ، يعبر أحد جسور موسكو بسيارته ، عائداً من احدى الحفلات ، انزلقت السيارة على الجليد ، وضربت سياج الجسر فكسرته ، وهوت

به إلى أعماق نهر موسكو نصف المتجمد .

وقد وجد التونسيون في سرداب السفارة ، خلال ذاك ، منفذاً أغلق بجدار غليظ ، فلما هدموا الجدار وجدوا انه يؤدي إلى ممر تحت الارض لم يهتدوا إلى نهايته ، كما اكتشفوا في السرداب صفاً من الغرف الصغيرة التي ربما كان بيريا يودع فيها بعض سجنائه الذين يرغب في « العناية » بهم شخصياً . وكانت زوجة السفير تؤكد ان الصرخات تصدر ليلاعن ذلك السرداب الرهيب . وقد أيد هذا ، بعض التأييد ، ما كان يروى في حينه من أن بيريا كان يسجن في سردابه البنات اللائي يختطفهن في شوارع موسكو ليلاً . وكان الناس يتهامسون عن بيريا بقصص غريبة ، منها أنه كان يجوب الشوارع في أواخر الليل بسيارته « الزيس » الضخمة المانعة للرصاص ، وعندما يشاهد فتاة حسناء بمفردها ، يأمر السائق بالوقوف ، ثم يومىء الى الفتاة ، فتقفز إلى السيارة وهي ترتجف ، إذ لم يكن أحد ليجرؤ على عصيان أمره . ثم يذهب بيريا مع فريسته إلى الدار ، وتغلق وراءه الابواب الحديدية الضخمة . أما ما يجري بعد ذلك في الداخل فلم يكن ليعرف على وجه التحديد ، ولكن الروايات كانت تتسرب أحياناً عن حفلات سكر صاخبة ، يشبع فيها بيريا ، وعدد من اصحابه المقربين وعلى رأسهم نائبه « آباكوموف » ، نزعاتهم « الساديّة » .

ومهما يكن نصيب الحقيقة من هذه القصص ، فان جو الدار كان اكثر مما تحتمله أعصاب السفير « المستيري » وزوجه ، فحزما حقائبهما وعادا إلى بلدهما .

ومرت شهور عديدة قبل أن يحل في الدار سفير جديد ، وهو « فتحي زهير » – وزير الصحة حالياً – الذي أعـاد طلاء الدار والسرداب ، وترك أبوابها ونوافذها مفتوحة أياماً عديدة ، ثم أحضر مقرئاً ختم فيها القرآن الكريم بصوت مرتفع ، قبل أن يتمكن من اقناع زوجه بالانتقال إلى الدار ، حيث طردت منها الاشباح وغادرتها الأرواح الشريرة .

ولما وصلت إلى الحفلة كان السفير فتحي زهير يستقبل المدعوين بمرحه المعتاد ، يضحك مع هذا وينكت مع ذاك ، أما زوجه فكانت ساهمة قليلة الابتسام ، تتطلع إلى الجدران من وقت لآخر . ومن يدري فلعل صورة بيريا كانت تتمثل لها أيضاً في اثناء الليل او أطراف النهار .

هدايا مسمومة

« ريغا » مدينة ساحلية جميلة على بحر البلطيق ، وهي عاصمة « لاتفيا » – إحدى جمهوريات الاتحاد السوفيتي ، ومن المدن التي تضم بين سكانها عدداً كبيراً من اليهود . وتزدحم هذه المدينة صيفاً بالمصطافين الذين يؤمونها من شتى أنحاء الاتحاد السوفيتي لقضاء إجازاتهم على شواطئها ذات الرمال البيضاء .

وفي أحد أيام حزيران سنة ١٩٦٤ بينما كان شاطىء « ريغا » مزدحماً كعادته بالمستحمين ، وهم يلهون بين أمواج البحر أو يستلقون تحت أشعة الشمس التي حرموا منها شهوراً طويلة ، شوهد بينهم شخصان كان في مظهرهما وتصرفهما شيء من الغرابة . وكانا رجلاً وامرأة : الرجل في منتصف العمر ، نحيل الوجه غائر العينين ، أقرب إلى الصلع ، والمرأة – وهي زوجته فيما يظهر – حسناء ذات شعر فاحم ، وعينين خضراوين ، وأنف محدودب قليلاً ، ولكنه دقيق . وكانت ترتدي ثوباً مما يشاهد على الشواطىء ، مكشوف الظهر ، منخفض الصدر ، يتكسر على جسم ناضج جميل التكوين ، فيتهدل على بعض مواضعه ، ويضيق ببعضها . وكانت ريح منعشة خفيفة تهب من ناحية البحر من وقت لآخر فتعبث بطرف ثوبها ، فتنحني قليلاً ، وتضع احدى يديها عليه لكبته ، بينما تحمل بيدها الأخرى حقيبة من قماش ، أشبه بحقائب شركات الطيران ، الا أنها أكبر حجماً ، وكان يبدو انها ثقيلة بعض الثقل .

وكـان هذان الشخصان يتجولان بين جماعات المستحمين والمصطافين ، وهما يسيران ببطء وهدوء ، ويتطلعان في وجوههم ، كأنهما يبحثان عن أحد ، ثم يقترب الرجل من إحدى الجماعات . وهو يبتسم ابتسامة متكلفة ، ويبادرها بالسلام ويدخل معها في حديث ودي ..

وكانت الأدوار مقسمة بين الرجل وامرأته تقسيماً دقيقاً . فبينما يشغل الزوج الجماعة التي أقحم نفسه فيها ، ويلهيها بحديثه ، ويلقي على أفرادها أسئلة مختلفة ، مستفسراً في لجاجة عن أسمائهم وديانتهم وأماكن سكناهم وأعمالهم ، كانت امرأته تخرج من حقيبتها رزمة صغيرة ، فتضعها بين أمتعتهم خلسة .

وينتقل الزوجان بعد ذلك ، بخفة وحذر ، إلى جماعة أخرى ، دون أن يسترعيا الأنظار كثيراً ، فيكرران العملية نفسها . ٥

ومع ذلك ، فقد جلب تصرف هذين الشخصين المشبوهين انتباه شابين روسيين ، فنبها اليهما أفراد منظمة سوفيتية خاصة — يتطوع للعمل فيها بعض المصطافين — ومهمتها المحافظة على النظام العام والآداب في الشواطىء ، فتعقبوا حركاتهما وتنقلاتهما بين المصطافين ، ثم نظروا في محتويات بعض الرزم التي تركاها بين أمتعتهم ، فاذا بها نشرات وكراسات — باللغة الروسية — تحمل دعاية صهيونية سافرة ، وتهجما على الاتحاد السوفيتي واتهاماً له باتباع سياسة معادية « للسامية » ، واضطهاد رعاياه اليهود . وكانت في بعض الكراسات معلومات عن الحياة في اسرائيل ، وتحريض لليهود السوفييت على الهجرة اليها ، وأوصاف « للنعيم » الذي ينتظرهم في أرض الميعاد .

وعلى أثر ذلك استوقف أعضاء المنظمة — بالتعاون مع أحد رجال الأمن — الرجل وزوجته ، وطالبوهما بابراز هويتهما ، فامتنع الرجل في البداية ، وبدا عليه الارتباك ، ثم لم يجد بداً من ابرازها ، فاذا بها هوية دبلوماسية ، واذا الرجل سكرتير ثان في سفارة اسرائيل في موسكو ، واسمه « زيمراد » . وقد ادعى — لدى الاستفسار منه عما

يقوم به – بأنها منشورات سياحية « بريئة » ، وصادف انها كانت معه عند حضوره إلى الشاطىء . ولمّا عاد الدبلوماسي الخائب إلى سيارته ، طلب اليه أن يفتح صندوقها الخلفي ، فرفض في أول الأمر متذرعاً بحصانته الدبلوماسية ، ثم اضطرّ إلى فتحه ، فاذا به مليء بأكداس أخرى من المنشورات السياحية البريئة . صادف أن كانت معه .

ان هذه الحادثة لم تكن الأولى من نوعها – ولا الأخيرة . فقد حدثت خلال السنوات الثلاث التي قضيتها في موسكو (١٩٦٣–١٩٦٦) حوادث عديدة منوعة من أمثال هذا النشاط « اللادبلوماسي » الذي يقوم به موظفو سفارة اسرائيل في المدن السوفيتية التي يكثر فيها اليهود ، فيخرجون على أبسط قواعد التصرّف السليم ، وأخصّ واجبات الدبلوماسي ، فيفقدون احترام الدولة التي تستضيفهم وثقتها .

وقد لاحظت السلطات السوفيتية بعد هذا الحادث بشهر واحد فقط أن سكرتيراً ثانياً آخر في السفارة يدعى «يهودا كاتز» يقوم بعمل مماثل على شواطىء « أوديسّا » ميناء الاتحاد السوفيتي على البحر الأسود ، ومن أقدم مراكز التجمّع اليهودي وأكبرها في الاتحاد السوفيتي ، اذ شوهد وهو يستخدم أولاده الصغار لتوزيع المنشورات الصهيونية على المستحمّين اليهود ، دون أن يعتبر بالفضيحة التي لحقت بزميله في « ريغا » فسكتت السلطات عنه على مضض وهي حائرة في أمر هؤلاء الدبلوماسيين الذين ابتليت بهم .

ان هدف اسرائيل من هذه المحاولات لم يكن خافياً ، فقد أدركت انها اجتذبت من يهود أوربا كل من يمكن اجتذابه ، ولم يعد بينهم من يرغب في الهجرة إلى اسرائيل ، كما ظهر لها تعذّر اقناع اليهود الأمريكيين عليها ، فهم يكتفون بتقديم المساعدات إلى اسرائيل دون أن يفكروا في الهجرة اليها ، لأنهم لا يريدون ترك مستوى المعيشة الذي يتمتعون به . ولذلك اتجهت اسرائيل الآن إلى يهود الاتحاد السوفيتي (الذين يبلغ عددهم ثلاثة ملايين تقريباً) محاولة اجتذابهم ، فعمدت في سبيل تنفيذ خطتها إلى طريقتين : الأولى ، شنّ حملة

تشهير عالمية واسعة على الحكومة السوفيتية . واتهامها باضطهاد اليهود والتمييز ضدّهم، بقصد إحراجها أمام الرأي العام العالمي، وممارسة كل ضغط ممكن عليها لحملها على السماح بهجرة رعاياها اليهود إلى اسرائيل . والثانية ، ترغيب اليهود السوفييت في الهجرة . وبثّ الدعاية الصهيونية بينهم . ولم تكن الأعمال التي يقوم بها موظفو سفارة اسرائيل في موسكو الا تنفيذاً لهذا الجانب من الخطة .

ومن الطرق التي كانت تلجأ اليها السفارة أيضاً اتخاذ الكنائس اليهودية مراكز لدعايتها ، حيث يتصل موظفوها باليهود السوفييت الذين يحضرون لأداء صلواتهم ، ويوزّعون بينهم المنشورات الصهيونية . وكان مستشار السفارة المدعو « آبراهام آغمون » من أكثر الموظفين تردداً على المعبد اليهودي لهذه الغاية (أم تراه كان شديد التقوى) ؟ مما أدّى إلى انزعاج الحكومة السوفيتية ، ولفتها نظر السفارة أكثر من مرّة .

وقد نشرت جريدة « ترود » — الناطقة بلسان نقابات العمال — في شهر مارس ١٩٦٤ مقالا ذكرت فيه انها تلقت رسائل عديدة من المواطنين السوفييت اليهود ، يستنكرون فيها المنشورات التي يوزعها مستشار السفارة على المصلين ، أو يتناسى مجموعات منها على مقاعد الكنيست . وأخيراً لم تجد الحكومة السوفيتية بدّا من طرد المستشار « المتديّن » من بلادها ، بعد أن صبرت عليه طويلاً ، فاعلنت في شهر آب اعتباره شخصاً غير مرغوب فيه .

ولم تكن هذه الأعمال قاصرة على موظفي سفارة اسرائيل وحدهم ، فقد وقع في الفترة نفسها حادث آخر ، كان بطله في هذه المرّة السفير نفسه ، ومسرحه مدينة « أوديسّا » .

وكان موظفو السفارة يكثرون من التردد على هذه المدينة مختلقين شتى الحجج والاسباب ، وغايتهم الحقيقية الاتصال بالجالية اليهودية الكبيرة فيها ، وبثّ الدعايات الصهيونية المعادية للسوفيت بينهم . وبينما كان اثنان منهم في « أوديسا » استغل بعض اليهود السوفييت

وجودهما في الكنيست فقدّما اليهما عريضة موجهة إلى حكومة اسرائيل ، طالبين ايصالها اليها . وكانت العريضة تتضمن احتجاجاً من يهود أوديسا على حكومة اسرائيل بسبب إقامتها علاقات دبلوماسية وودّية مع المانيا الغربية « تلك الدولة التي تعمل على تغيير الحدود القائمة ، وتستعد لشنّ حرب على الشعوب المحبّة للسلام ، وتستخدم في وظائفها نازيين من عملاء آيخمان ، متغاضية عن جرائمهم » . الاّ أن موظفي السفارة رفضا تسلّم العريضة بخشونة ، وتهجما على حامليها بعبارات نابية ، وغادرا أوديسّا في اليوم التالي عائدين إلى موسكو .

فعمد أصحاب العريضة على أثر ذلك إلى ارسالها إلى الصحف ، وصدرت جريدة « ازفستيا » — الناطقة بلسان الحكومة — في ١٠ نيسان ١٩٦٤ وفيها مقال يهاجم سفارة اسرائيل بسبب تصريحات موظفيها في كنيست اوديسا ، ورفضهما تسلم العريضة التي قدّمت — دون شك — بموافقة من الحكومة وبعلم منها .

وبعد هذا الحادث بستة اسابيع ذهب سفير اسرائيل في موسكو (واسمه كاتريل كاتز) إلى « أوديسا » ، وحضر الصلاة في الكنيست . وبعد انتهائها نهض من محله ووجه إلى الحاخام سؤالاً عن سبب ارسال الاحتجاج إلى الصحف . بعد أن رفض تسلّمه موظفا السفارة ، والحّ أن يعتلي المنبر ليشرح وجهة نظر اسرائيل من تبادل التمثيل الدبلوماسي مع المانيا الغربية ، فمنعه الحاخام وبين له أن المعابد الدينية ليست أماكن لبحث القضايا السياسية ، وانه اذا كان لديه ما يريد أن يحادثه به فعليه أن يأتي إلى غرفته بعد انتهاء الصلاة ، فاشتبك السفير معه في مشادة كلامية عنيفة ، وصرخ فيه قائلاً إنه نازيّ وليس يهودياً .

وبعد عودة السفير إلى موسكو ، نشرت جريدة « ازفستيا » — في ٢١ مايس ١٩٦٤ — مقالاً هاجمت فيه سفير اسرائيل هجوماً صريحاً ، وكان المقال شديد اللهجة ويتضمّن استنكاراً قوياً وانتقاداً لاذعاً لتصرّفه في « اوديسّا » . وعلى أثر نشر هذا المقال أدلى ناطق بلسان السفارة بتصريحات للمراسلين الغربيين في موسكو ، حاول

فيها تبرير الحادث ، وأبدى أن اتهامات جريدة « ازفستيا » لا أساس لها من الصحة . فسارعت جريدة « نيويورك تايمس » فنشرت هذه التصريحات في اليوم التالي (٢٢ مايس) على الصفحة الأولى من طبعتها الأوربية ، كما أن جريدة « لوموند » الفرنسية نشرت الخبر وانتقدت « ازفستيا » على مهاجمتها سفير دولة أجنبية ، ورأت ذلك منافياً لواجب المجاملة نحو السفراء الأجانب . ولم تجد كلتا الجريدتين في تصرّفات السفير ما يستوجب الانتقاد ، ولم تعلّقا عليها بكلمة .

وأخيراً وقعت حادثة « ريغا » وأوشك صبر الحكومة السوفيتية أن ينفد .

وصدرت جريدة « ترود » — في ٣١ آب ١٩٦٤ — وفيها مقال لاذع عن الحادث ، ومعه صورة السكرتير الثاني « زيمراد » وزوجته الحسناء ، وبينهما مجموعة من المنشورات التي كانا يوزّعانها على المستحمّين اليهود في شواطىء ريغا المزدحمة ، في ذلك الصباح القائظ من حزيران ، وكانت الصورة أشبه بصور المجرمين التي تنشرها الصحف ، ومعهم الأدوات الجرميّة أو الأموال المسروقة التي ضبطت لديهم . وكان عنوان المقال طريفاً ، وهو « هدايا مسمومة » ، وبعض ما جاء فيه أكثر طرافة ، اذ يقول كاتبه :

« إن بعض المتطرفين الصهيونيين في سفارة اسرائيل هم من الحمق بدرجة يعجزون معها عن فهم الشعب السوفيتي ، وان سيارات السفارة الاسرائيلية المحمّلة صناديقها الخلفية بـ « الأزبال » الآيديولوجية ، طالما شوهدت خلال أشهر الصيف في كييف وأوديسا وشيرنوفتس وغيرها من المدن ، وان السياح الاسرائيليين من حملة الباسبورتات الدبلوماسية تركوا وراءهم حيثما حلّوا آثاراً قذرة . »

ولا شك في أن كثيراً من الأجهزة السوفيتية قد ارتاحت إلى حدّ بعيد ، وقلّت مشاكلها ، حين قطعت الحكومة السوفيتية علاقاتها الدبلوماسية مع اسرائيل في حزيران ١٩٦٧ ، وطردت ممثليها جميعاً ، من سكرتيرها إلى سفيرها .

معركة المذكرات

يعنى كثير من الدبلوماسيين ، بعد اعتزالهم العمل ، بنشر مذكراتهم عن الأحداث المهمة التي شهدوها أو أسهموا فيها ، والرجال الذين عرفوهم أو عملوا معهم . ولمّا كانت هذه المذكرات تنشر عادة بعد مغادرتهم البلاد التي عملوا فيها ، وابتعادهم عن الأشخاص الذين عملوا معهم أو زاملوهم ، فان أصحابها يجدون أنفسهم في حلّ من قواعد المجاملة التي كانت تقيّدهم ، فيكتبون — في الغالب — لوجه التاريخ وحده ، أو لتسجيل أعمالهم وآرائهم ، والدفاع عن مواقفهم ووجهات نظرهم ، دون أن يتحرّجوا في قول ، أو يجاملوا أحداً .

وكثيراً ما نجد في مذكرات الدبلوماسيين تعليقات على أحداث معينة ، وملاحظات عن زملاء لهم من دولهم أو من دول أخرى ، لم يكونوا ليصرّحوا بها في يومها . ويصدف أيضاً أن يقوم الدبلوماسي الذي تحدث عنه زميل سابق له فيما كتب ، بنشر مذكراته في وقت لاحق ، فينتهزها فرصة للدفاع عن نفسه ، أو مقابلة زميله بالمثل على ما كتبه عنه ، و «المقابلة بالمثل» من المبادىء المألوفة في التعامل الدبلوماسي وتكون قراءة أمثال هذه المذكرات ومقابلة بعضها ببعض ، مادة ممتعة للقارىء العابر ، ومصدراً نافعاً للمؤرخ .

ومن أكثر المذكرات طرافة في هذا الباب ، ومن أهمها ، تلك التي كتبها سفراء بريطانية والمانية الذين جمعتهم ظروف العمل في عاصمة واحدة ، خلال السنوات المتأزمة التي سبقت الحرب العالمية

الثانية . حيث كانت الغيوم تتجمّع . أو خلال سني الحرب التي أعقبتها . حيث بقي ممثلو الدولتين جنباً إلى جنب في عواصم بعض الدول التي كانت لا تزال على الحياد . ومحتفظة بعلاقاتها مع كلا الجانبين المتحاربين .

ومن أوائل المذكرات التي نشرت عن الفترة الأولى هي مذكرات « السر موريس بيترسن » ، وهو من الدبلوماسيين البريطانيين المعروفين ، وقد نشر مذكراته بعنوان « جانبا الستار » — ويريد جانبي الستار الحديدي — حيث كان سفيراً في عدد من العواصم الشرقية والغربية ، بينها موسكو ومدريد وأنقرة وبغداد . وصادف أن كانت خدمته في بغداد قبيل الحرب العالمية الثانية في سنتي ١٩٣٨ و ١٩٣٩ . وكان زميله الألماني فيها الدكتور فريتز غروبا الذي كان ينافسه منافسة قوية في الدعاية التي يقوم بها لبلاده من جهة ، وضد بريطانية من جهة أخرى . وفي مذكرات بيترسن — التي نشرت سنة ١٩٥٠ — إشارات متكررة إلى الدكتور غروبا ، وتذمر من نشاطه ومن الدعايات « النازيّة » التي كان يبثها هو وزوجته في الأوساط العراقية وبين الجالية الاجنبية ، فهو يقول عنه :

« كانت أزمة مونيخ قد جعلتنا أكثر إدراكاً لخطر النفوذ الألماني . وفي تلك الفترة تقريباً تلقيت — بناء على توصية صريحة متباهيةمن وزير المانيا المفوّض الدكتور غروبا — زيارة من « فون هنتنك » وهو شخصية جذابة ولكنها خطرة ، وهو « وازموس » الحرب العالمية الثانية . ولكنه مع ذلك كان طائراً عابراً . ومن بين الضيوف الألمان الذين هم أكثر دواماً ، ضمنت إبعاد الاثنين اللذين ظهرا لي أكثرهم خطراً ، وأحدهما آثاريّ شهير كان مديراً لمتحف بغداد فترة من الزمن ، والآخر كان يدّعي انه تاجر متجوّل ، وكان قد استغل بصورة خاصة مجتمع كبار الضباط في الجيش العراقي .

« أما في حالة غروبا وزوجته فقد كنت مغلول اليدين ، ولم يكن في وسعي أن أفعل أكثر من تحذير العراقيين وأفراد جاليتي ، وهو

تحذير كنت أكرره في كل مناسبة ممكنة . و كان الدكتور غروبا وزوجه حريصين على أن يظهرا بريطانيين أكثر من البريطانيين أنفسهم في كل نشاط تقوم به الجالية الأجنبية . وكان جسم « الهر دوكتور » القصير المكتنز ، بكسوته المناسبة ، يطالع علينا بانتظام في اجتماعات الصيد التي كانت تطارد بنات آوى بدلا من الثعالب ، عبر رمال الصحراء المحيطة ببغداد أو الحبانيّة . وفي الكنيسة الانكليزية التي أنشئت تذكاراً للحرب الكبرى كانا يجلسان في المقعدين المجاورين لمقعدي ، والأرغن البديع الذي في الكنيسة كان هدية من الجالية الألمانية . وكان نشاط زوجة الوزير الألماني ، في نظري ، أكثر شرّاً من نشاطه هو ، لأنه كان أقلّ ظهوراً للعيان . إن « فراو غروبا » التي كانت تشقّ طريقها ، وهي تعرج ، إلى بيت كل بريطاني تقريباً بانتظام ، وإلى جانب سرير كل مريض بريطاني في بغداد ، كان اختصاصها جمع الشائعات التي تؤثر في الجالية البريطانية ، ونقلها — بعد التزويق الضروري — إلى الأوساط العراقية المناسبة التي يمكن الاساءة إلى علاقاتها بالبريطانيين .

« وفي مطلع سنة ١٩٣٩ بدا لي أن غروبا أخذ يرفع القناع . على أنني أذكر مع ذلك أنه فاجأني — خلال زيارة توديع رسميّة كنت أؤديها له بمناسبة نقلي إلى اسبانيا — حين تفضّل عليّ بمعلومات تفيد أنه ليس من المحتمل أن يبدي هتلر معارضة في عودة الملك آلفونسو . وقد قلت في نفسي لا بد أن الاسبان قد تغيّروا كل التغير خلال السنوات الثماني الأخيرة التي مضت على آخر عهدي بهم اذا أبدوا استعداداً للانقياد لهتلر في أمر كهذا . »

و كان الدكتور غروبا يمثل المانيا في العراق منذ سنة ١٩٣٢ ، وقد عاصر فيه أحداثاً مهمّة ، وبقي حتى سنة ١٩٣٩ حين قطعت العلاقات بين البلدين خلال الحرب العالمية الثانية . ولمّا استؤنفت تلك العلاقات خلال حركة رشيد عالي الكيلاني في مايس سنة ١٩٤١ ، عاد غروبا إلى العراق لفتح المفوضية الألمانية . ولكن إقامته هذه المرّة لم

تطل أكثر من عشرين يوماً ، وغادر العراق – مع زعماء الحركة التي لم يكتب لها النجاح – راجعاً إلى برلين. حيث عمل في وزارة الخارجية زمناً ، ثم عين خلال السنة الأخيرة من الحرب مدعياً عاما في « مانينكن » وبعد اندحار المانية اعتقلته السلطات السوفيتية ، وحاكمته بتهمة الجاسوسية أو العمالة . فحكمت عليه بالسجن عشر سنوات. وأطلق سراحه بعد قضاء هذه المدة أو معظمها .

وكان غروبا لا يزال في السجن يوم نشر بيترسن مذكراته في سنة ١٩٥٠ ، ويوم توفي بعد نشرها بسنتين ، في مارس ١٩٥٢ . ولم يتح لغروبا أن ينشر مذكراته الا في نهاية سنة ١٩٦٧ ، وقد صدرت باللغة الألمانية بعنوان « الرجال والقوى في الشرق – ٢٥ سنة من العمل الدبلوماسي » . وقد تضمنت هذه المذكرات فصولاً طويلة عن العراق . لأن غروبا ، وان كان دبلوماسيا محترفاً ، فانه لم يعمل الا في عاصمتين اثنتين ، هما كابل وبغداد .

واستطاع غروبا بعد هذه السنوات الطويلة أن يجد الفرصة المؤاتية للدفاع عن نفسه ومقابلة زميله وغريمه بالمثل . ومن الطريف جداً ملاحظة ما كتبه عن السر موريس بيترسن ، والمقارنة بين نظرتي الرجلين إلى الأحداث نفسها والاشخاص انفسهم ، كلّ من زاويته ، وبمنظار من مصالح بلاده .

وكتب غروبا ، بعد سبعة عشر عاماً من صدور مذكرات بيترسن يردّ عليه :

« ومن الأسباب التي دعت إلى القول بان الألمان يثيرون الشعب العراقي على الانكليز تلك المظاهرة التي قام بها في بغداد طلاب المدارس من الصفوف العليا يوم ٦ نيسان (١٩٣٩) وقد حاول المتظاهرون عبور جسر دجلة والوصول إلى السفارة البريطانية ، وتعالت هتافاتهم ضد نوري السعيد والانكليز ، كما وزّعت مناشير تتهم نوري السعيد بتدبير مقتل الملك غازي . وقد أفاد بعض الطلاب الذين أوقفتهم السلطات أنهم « اشتراكيون وطنيون » وكان إثنان منهم يدرسان على

معلم ألماني . وهكذا بدا أن الألمان هم الذين يهيجون الشعب . مما حمل نوري السعيد على اتخاذ الاجراءات ضدّهم ، فطرد من العراق الدكتور بوليوس يوردان المستشار الآركيولوجي لمديرية الآثار القديمة الذي قضى في العراق ثلاثين عاماً حقق خلالها مكاسب عظيمة في البحوث الآركيولوجية ، كما أعلن أن ثلاثة من المعلمين الألمان الذين يدرّسون اللغة الألمانية في المدارس ينظر في أمر اخراجهم .

« ويقول السر موريس بيترسن انه هو الذي دبرّ طرد خبير الآثار والألمان الآخرين ، كما يقول عني : « أمـــا بشأن غروبا فقد كنت مغلول اليدين ولم يكن بوسعي أن أفعل شيئاً من تحذير العراقيين وأفراد جاليتي ، وهو تحذير كنت أكرره في كل مناسبة ممكنة . »

« وفضلاً عن ذلك أُرسلت إلى القائم بالاعمال العراقي في برلين ، عطا أمين ، تعليمات لمفاتحة وزارة الخارجية بان تصرّفاتي تسيء إلى العلاقات العراقية – الألمانية . ولا شك أن بيترسن – في هذه الحالة أيضاً – كان يكمن وراء الأمر . »

أما المعركة الثانية – التي كان ميدانها المذكرات – بين سفيري ألمانيا وبريطانيا ، فهي التي نقرأها في مذكرات كل من الهر فون بابن ، والسر هيو ناتشبول – هكسن ، اللذين كانا يمثلان بلديهما في انقرة خلال سني الحرب . وكانت أنقرة في تلك الفترة مركزاً لنشاط دبلوماسي مهم ، وقاعدة لعمليات التجسس الخطيرة ، بسبب بقائها على الحياد مدة طويلة ، وكونها إحدى العواصم القليلة التي كانت فيها بعثات دبلوماسية للحلفاء ولدول « المحور » في وقت واحد .

وكان السفير الألماني ، فون بابن ، مستشار الرايخ السابق ، ومن أشهر الشخصيات الألمانية . أما زميله البريطاني ، ناتشبول – هكسن ، فكان من أكفأ الدبلوماسيين البريطانيين ، ومن أشهرهم أيضاً . وان كانت شهرته لا تعود إلى كفاءته الممتازة ودبلوماسيته النادرة ، بقدر ما تعود إلى غفلته وسوء حظه . فقد كان الضحية

الرئيسية في « عملية شيشرون » المشهورة التي سخرّ فيها الألمان خادمه الشخصي لتصوير الوثائق السرّية في السفارة البريطانية خلال الحرب . لقاء مبالغ طائلة من المال ، دفعت بالجنيهات الانكليزية التي ظهر فيما بعد أن معظمها كان مزوّراً ومطبوعاً في المانيا .

كان السفير ناتشبول — هكسن من بقايا المدرسة القديمة في السلك الدبلوماسي البريطاني ، مثل بلاده في بلجيكا ، وبعض دول البلقان كما مثلها في الصين وايران ، وكان خلال سني الحرب العالمية الثانية (من ١٩٣٩ إلى ١٩٤٤) سفيراً لبلاده في أنقرة . وكان رجلاً ذا مواهب رفيعة وشخصية جذابة ، ينظم الشعر ، ويجيد الرسم ، ويهوى العزف على البيانو . وقد نشر مذكراته في سنة ١٩٤٩ ، وكان أسلوبه فيها من النسق العالي ، وقد ضمّ اليها صوراً جميلة بريشته لمناظر من البلدان التي عمل فيها أو زارها ، كما ألحق بها قصائد خفيفة الظل ، فيها مزاح لطيف ، تتعلق ببعض ما ورد في المذكرات ، أو ما أوحت به أحداثها اليه .

وفي مذكرات ناتشبول — هكسن أربعة فصول ضافية عن خدمته في أنقرة ، واشارات متعددة إلى زميله الألماني ، فون بابن ، ولكن ليست فيها أية اشارة ، مباشرة أو غير مباشرة ، إلى « عملية شيشرون » بالرغم من أنها هزّت العالم ، وكانت أشهر قصص الجاسوسية في الحرب العالمية الثانية . والمذكرات كلها كتبت بأسلوب هادىء مطمئن ، وبلهجة سفير الدولة المنتصرة الذي يتحدث عن خيبة زميله الألماني وغفلته ، وفيها يحاول أن يبرز ، بصورة غير مباشرة ، وفي حذر شديد ، دوره الشخصي في استمالة تركية إلى جانب الحلفاء في آخر الأمر ، بعد أن بقيت على الحياد معظم سني الحرب .

وهو يقول عن فون بابن :

« وصل السفير الألماني في ٢٧ نيسان ١٩٣٩ ، وكانت حكومته منذ مدة تقارب السنة تضغط على الأتراك ، لتحملهم على قبوله ، وقد قاوموا إلى ذلك الوقت ، ولكنه حتى عند وصوله لم يستقبل بحماسة زائدة . »

ثم يتحدّث عن مقابلته إياه ، والعلاقات بينهما بعد إعلان الحرب بين بلديهما ، فيقول :

« ولقد تقابلنا قبل نشوب الحرب في مناسبات قلائل ، أما بعد نشوبها فلم نلتق – بطبيعة الحال – مطلقاً ، بل اننا بعد ٣ أيلول ١٩٣٩ لم تضمنا غرفة واحدة الا ّ في بعض المناسبات العامة ، كحفلة البالو السنوية التي تقيمها الحكومة التركية في عيدها الوطني . وقد اتخذت وزارة الخارجية احتياطات دقيقة لتحول دون اجتماعنا ، واذا كان وزير الخارجية سيقابلنا متتابعين ، فان الثاني بيننا في ترتيب المقابلة لم يكن ليؤخذ إلى غرفة الانتظار الا ّ بعد أن يكون الأول قد غادرها . والباب الذي يوصل غرفة الانتظار بمكتب السكرتير الخاص – المؤدي إلى مكتب الوزير – كانت تستبقى مقفلة دائماً . وكان السكرتير يرافق من كان منّا مع الوزير أوّلاً فيوصله حتّى السلالم المؤدية إلى الطابق الأسفل مباشرة ، دون أن يمرّ بغرفة الانتظار ثانية ، ثم يعود ليطلق سراح السفير الآخر من « محتجزه » فيها ، ويدخله على الوزير . وقد نجحت هذه الطريقة نجاحاً تاماً ، الا ّ في مناسبة واحدة ، حين وصلتُ متأخراً عن موعدي بضع دقائق ، فكدت أصطدم في الممر بفون بابن الذي كان خارجاً من غرفة الوزير . »

وفي مكان آخر يقول السفير البريطاني عن زميله الألماني :

« كان اسم فون بابن قبل وصوله إلى تركية قد أصبح أسطورة من الأساطير ، وارتبط في أذهان العالم أجمع بكلّ ما هو عنيف ومشين في التعامل الدبلوماسي . إن سمعته في هذا الضرب الخاص من الدهاء قد تكوّنت خلال حرب سنة ١٩١٤ ، ثم زادها اكفهرار أبنظر العالم ماضيه المعتم كمستشار للرايخ ، وأب روحي مفترض لنظام هتلر ، وسفير في النمسا . وقد اعتبرته أكثرية الناس – في أحسن الحالات – حاذقاً في فن المراوغة . على أن معرفتي المباشرة به كانت أقصر من أن تسمح لي بدراسته دراسة عميقة ، ولكن المقارنة « الديكنزية » سرعان ما فرضت نفسها . وكان ثمّ شيء مهنيّ (أو رسمي) فظيع يطبع

شخصيته الساحرة ، وهي صفة تدل على الدربة والمران الطويل . سريع وذكيّ على السطح ، أما عمقه فأمر يخامرني فيه كثير من الشك . وكان قياد سحره بيده ، يمكنه تقويته أو تعميقه حسب الطلب ، وان لم يؤدّ الى النتيجة المطلوبة مع الأتراك . وفي خلال مقابلاتنا الأولى ، وردت في حديثه إشارة عابرة إلى الفترة التي كان فيها مستشاراً للرايخ (رئيساً للوزراء) فشعرت بقشعريرة غير ارادية لفكرة احتلال رجل له مثل هذا الماضي ، منصباً بهذه المسؤولية . »

« ولكنني أعترف له بفضيلة الشجاعة . فانه — خلال خدمته نظاماً لا يقبل الفشل من رجاله — لم يتردد في مواجهة الواقع قط . وكان خطابه في ماربورك أنموذجاً مبكراً لذلك . وسفرته إلى برلين على أثر التصريح البريطاني — التركي مباشرة لم تكن سوى الاولى من مناسبات عديدة يذهب فيها لمقابلة زعيمه ، وليس لديه غير القليل مما يستطيع أن يقوله في الدفاع عن نفسه . وفي المناسبة الاخيرة ، بعد أن قطعت تركية علاقاتها مع المانيا بصورة نهائية في آب سنة ١٩٤٤ ، كنت واثقاً — شأن الكثيرين غيري — بأنه إذا عاد إلى برلين ، فان عودته في هذه المرّة ستكون أسوأ من أي وقت مضى .

« وكانت مهمة فون بابن الدقيقة أن يشق طريقه بين عقبات متعددة ، وهو — كما كان يلاحظ ويعرف في أنقرة — لم يكن نازياً على وجه التأكيد . ولا أذكر أنني رأيت صورة لهتلر في غرفه في أنقرة ، ولا في طرابيا ، وان كنت أذكر جيداً مجموعة من الصور لولهلم الثاني ، وللامبراطورة ، ولهندنبرك . ولن أنسى أيضاً أنه انتهز أول فرصة للانتقال من دار السفارة الألمانية الضخمة ، إلى المفوضية التشيكوسلوفاكية التي سارع الموظفون الألمان باخراج الوزير التشيكوسلوفاكي منها قبل وصوله . وقد فعل ذلك ليهرب من مرؤوسيه الهتلريين الذين قيل إنهم كانوا يرقبونه بدقّة زائدة . »

أما عن قطع العلاقات بين تركية والمانية ، وعودة فون بابن إلى برلين فقد كتب السفير البريطاني ناتشبول — هكسن :

« غادر الهر فون بابن تركية بصورة نهائية ، بعد قطع العلاقات بأيام قلائل ، في مطلع آب ١٩٤٤ ، وكان يحجبه عن المصورين الصحفيين في المحطة السور الذي أقامته دونهم زوجات موظفيه بحقائبهن اليدوية . وقد رافقه إلى الحدود موظف من وزارة الخارجية التركية . وهو يستحق التقدير لعودته إلى برلين على الفور ، ومما يزيد في ذلك أن فقرة في خطاب رئيس الوزراء تشرشل في مجلس العموم في ٢ آب كانت تحمل تنبيهاً له . وكانت المناسبة إحدى الخطب الدورية التي يستعرض فيها الموقف الحربي ، وقد حرص المستر تشرشل على أن يعلن في ختام خطابه أن تركية قطعت علاقاتها مع المانيا ، وكان هذا يتطلب قدراً كبيراً من التوقيت الصحيح .

« أعلن المستر تشرشل القرار التركي ، وأضاف اليه ملاحظة قال فيها إن الهر فون بابن سيعود إلى برلين ليخوض حمامات الدم التي نجا منها قبل سنوات قلائل . ولا شك أن السفير الألماني قد ساورته الظنون بأن المستر تشرشل كانت لديه معلومات موثوق بها ، بنى عليها هذا الأنذار المخيف . وقد قيل لي إنه استفسر من أكثر من صديق ماذا كان تشرشل يعرف عن مصيره . وبعد مقابلته الوداعية مع الرئيس (التركي) التي وصفت لي بأن الدموع كادت تذرف خلالها ، غادر إلى برلين . والواقع انه لقي استقبالاً يختلف عمّا توقّعه كل فرد . فقد منح وساماً رفيعاً ، وقلّد سيفاً فخرياً . وقد قال الكثيرون في أنقرة إن المستر تشرشل أنقذ حياته . »

أما « فون بابن » فقد نشر مذكراته بعد زميله البريطاني ، وبعد انتهاء مشكلاته الشخصية أيضاً ، وكانت معقدة ، طويلة مرهقة ، فهو وان نجا مما توقّعه له تشرشل من بطش هتلر ، فقد مرّت به أحداث خطيرة ، وقضى أياماً وشهوراً كان خلالها بين الموت والحياة . وقد أعتقلته السلطات الأمريكية بعد اندحار المانيا ، وحوكم في نورمبرغ مع مجرمي الحرب ، فصدر الحكم ببراءته ، ولكنه لم يلبث أن اعتقل ثانية ، ليواجه محكمة أخرى ، هي محكمة تصفية النازية ، فحكمت عليه

بالسجن ثماني سنوات ، مع مصادرة معظم أمواله .

وكان « فون بابن » يوم صدور مذكرات زميله البريطاني لا يزال في أحد سجون ألمانيا ، لا يعرف مصيره ، ولا يدري هل سيمتد به الأجل ، فيستعيد حريّته ويدوّن ذكرياته الحافلة يوماً ما ، أم يقضي نحبه في غياهب السجون .

ولم يطلق سراحه الا ّ بعد خمس سنوات من الاعتقال والسجن والقلق ، وبعد أن تقدّمت به السن وعصف به اليأس . ومع ذلك ، فقد تمكن من تدوين مذكراته ونشرها ، فأصبحت على الفور من الوثائق التاريخية المهمّة للفترات التي تناولتها والأحداث التي تضمنتها .

كانت حياة « فون بابن » حافلة بشتى الأحداث الخطيرة التي قررت مستقبل بلاده . ولم تكن تجاربه في مجال الدبلوماسية الا ّ جزءاً من تجاربه الكثيرة ، ولم يكن قبوله منصب السفارة ، ودوره في تركية خلال وقوفها على الحياد الا ّ بعض ما اضطلع به من مسؤوليات خطيرة ، فقد وصل في بلاده إلى أعلى المناصب السياسية ، وكان رئيساً للوزراء (أو مستشاراً للرايخ) ، وكان الشخص الذي خلفه في هذا المنصب مباشرة هو هتلر . ويعتبره كثير من المؤرخين (بينهم شيرر) المسؤول الأول عن قيام نظام حكم هتلر ، وانتهاء المانيا إلى المصير المؤلم الذي انتهت اليه . ولذلك لا يمكن في الواقع عقد أية مقارنة بين فون بابن وزميله البريطاني في أنقرة ، ولا بين أهمّية مذكراتهما وقيمتهما التاريخية . فالأول من دهاقنة السياسة و « ثعالبها » المتمرّسين ، والآخر دبلوماسي كانت حياته تدرجاً هادئاً في مناصب السلك الخارجي انتهى به إلى منصب السفارة ، ولم يكن تعيينه في أنقرة الا ّ منصباً آخر من مناصبه الدبلوماسية ، وليس لاعتبار خاص ، وكان من الممكن أن يقضي فترة الحرب – بدلا من أنقرة – سفيراً في فنزويلا أو الحبشة ، يصرّف شؤون السفارة صباحاً ، ويعزف على البيانو بعد الغداء ، وينظم الشعر مساء ، ويمارس التصوير أيام الأحد ، كما كان يفعل في أنقرة تماماً ، ثم يكتب مذكراته عن ذلك البلد بدلا ً من تركية .

وبالرغم من أن سفارة « فون بابن » في أنقرة احتلّت جزءاً صغيراً من مذكراته الضخمة ، التي تتناول حياته السياسية الطويلة ، فانه لم يفته أن ينوّه بما كتبه عنه زميله البريطاني ، ويردّ على كثير مما ذكره عنه ، سواء أكان ذلك عن شخصه ، أم الأحداث التي مرّت بهما . فهو يقول عنه :

« كان أكثر زملائي الدبلوماسيين إثارة لاهتمامي واعجابي هو السفير البريطاني سير هيو ناتشبول – هكسن ، وهو رجل ذو شخصية جذابة ومفتوحة ، وكان سيخلد في ذاكرتي أنموذجاً كاملاً للارستقراطي الانكليزي من الطراز القديم ، لو لم يكتب عني في مذكراته « دبلوماسي في السلم والحرب » أموراً مخالفة للحقيقة بصورة صارخة . فهو يقول عن وصولي إلى أنقرة : « إن حكومته منذ مدة تقارب السنة كانت تضغط على الأتراك لحملهم على قبوله ، وقد قاوموا إلى ذلك الوقت (وقد وصلت في نيسان) ولكنه حتى عند وصوله لم يستقبل بحماسة زائدة » . واني لا أفهم هذا التفسير . لأنني لم أوافق على قبول المنصب الا في ١١ نيسان ١٩٣٩ ، ولذلك فلم يكن بالامكان إرسال طلب الموافقة على تعييني سفيراً في تركية الا في ١٢ نيسان أو بعده ، أي قبل وصولي إلى أنقرة بأربعة عشر يوماً فقط ، وقد ورد الجواب بالموافقة على الفور تقريباً . »

« وهنالك كثير من التفسيرات والمغالطات من هذا القبيل ، ولكن هنالك أمراً شخصياً واحداً أودّ أن أصححه للسير هيو ، ولو في هذا الوقت المتأخر . ففي أحد الأيام من أواسط آب دعوته وزوجته لتناول الغداء ، وكان يوماً غير سعيد ، فقد تلقيت قبيل وصولهما برقية تنعي لي والدتي . ولم يكن الوقت ليسمح بالغاء الدعوة ، ففضلت أن أكتم هذا الخبر المحزن في نفسي حتى انصراف ضيوفنا . وكانت ملاحظة السير هيو : « وكان ثمّ شيء مهنيّ (أو رسمي) فظيع يطبع شخصيته الساحرة » . وقد أستطيع الآن أن أقدّم هذه المعذرة المتأخرة » .

ويقول في مكان آخر :

« إن الحرب التي أثارها هتلر غيرت طراز حياتنا في لحظة واحدة . وفي أنقرة شارع رئيسي واحد ، هو شارع جانقايا ، وقد وجدنا أنفسنا نعيش في هذه المدينة مع أعدائنا الجدد ، مضطرّين إلى التظاهر يومياً بأننا لا نرى بعضنا بعضاً خلال لقاءاتنا غير المقصودة . وكان هنالك استثناء واحد ، هو السر هيو ناتشبول – هكسن ، السفير البريطاني ، الذي كان على الدوام يرفع قبعته لنا كلما قابل زوجتي أو قابلني . وقد وجدت في هذا التصرّف المهذّب متنفساً لطيفاً من التوتر الذي كان يسود أيامنا . وكنت ، بطبيعة الحال ، أبادله التحيّة . »

أما عملية شيشرون التي لم يشر اليها السفير البريطاني بكلمة واحدة ، فقد أفرد لها فون بابن فصلا خاصاً ، ولكن لم يكن فيه شيء من التشفيّ أو التهكم ، بل ذكر فيه انه عارض في البداية نشر تفاصيلها عندما عرضها عليه الملحق السابق في السفارة الذي تولى تلك العملية ليستأذنه في النشر . وكان السبب في معارضته دفع الحرج عن زميله السابق . وهو يقول في ذلك :

« كان ابني قد تعرّف على أسرة السر هيو عندما كانوا في بكين ، وأصبح صديقاً حميماً لها . ولما زارنا في أنقرة خلال الحرب ، بذل السر هيو في إحدى حفلات الاستقبال الدبلوماسية جهداً خاصاً لمقابلته ، فانتحى به جانباً ، وتبادل واياه حديثاً وديّاً . وقد تأثرت كثيراً لهذه المجاملة المهذّبة . وكنت أفضل منع نشر « عملية شيشرون » كاعتراف متأخر مني بذلك الفضل ، وكتقدير لذلك الموقف . ومع ذلك ، إذ وافق موئيزيج (الملحق الذي تولى العملية) أن يعرض مخطوطة الكتاب عليّ ، تمكنت أن أتثبت من أنه وصف الحادث بصورة منصفة تماماً . وفي كلمة ملحقة كتبتها للطبعة الانكليزية للكتاب ذكرت انني في الوقت المناسب ، ولوجه الدقّة التاريخية ، سأسجل ملاحظاتي عن القضية وتعليقاتي عليها . »

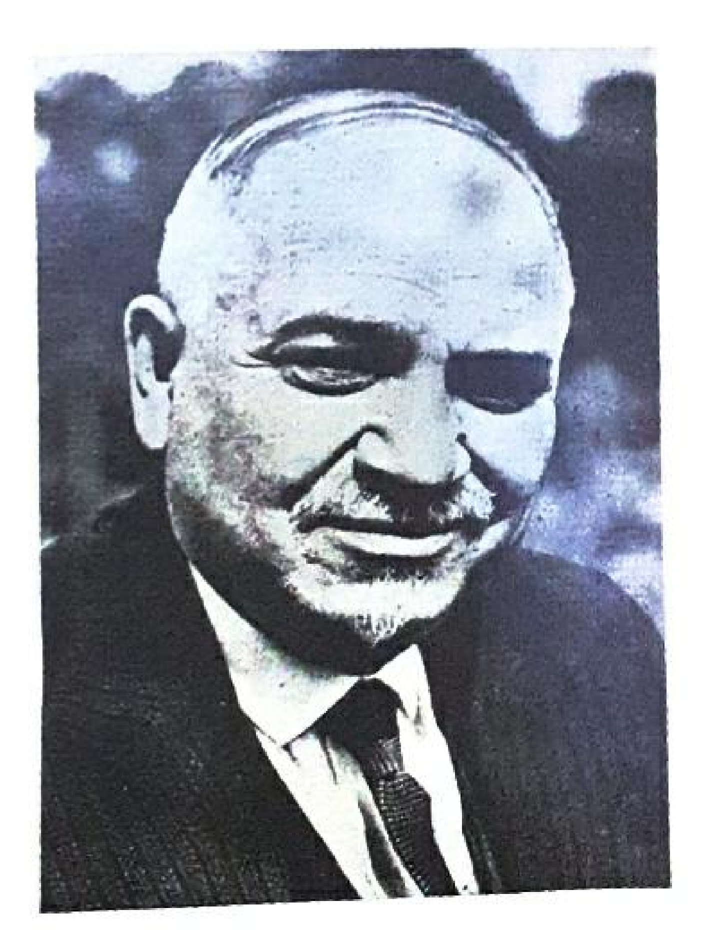
ثم يمضي « فون بابن » في سرد تفاصيل « عملية شيشرون » والمعلومات التي حصلت عليها المانيا عن طريقها ، دون أن تندّ منه

عبارة واحدة تمس كرامة زميله السابق أو تجرح شعوره .

وهكذا كان ردّ الدبلوماسي الألماني الداهية على زميله الذي وصفه بأن أسمه ارتبط في أذهان العالم بكل ما هو عنيف ومشين في التعامل الدبلوماسي ، وكان رداً أبلغ مما لو اتبع فيه مبدأ « المقابلة بالمثل ».

وهكذا انتهت المعركة الأخرى .





ايفان مايسكي
(في سنة ١٩٤٣)



عبد الوهاب درويش
(١٩٠١ - ١٩٤١)



آلفرد هول



كلارا ونيقولاس



ايرفين سكاربك



آندريه فيشنسكي
(١٨٨٣ - ١٩٥٤)



كلير بوث لوس



ريموند هير



اورسولا ديتشر



زوجة سكاربك



فون بابن (سنة ١٩٣٢)



السيدة جونسون والصهيوني كارل فريمان الصورة نشرتها جريدة «ايفنينك ستار» الصادرة في واشنطن مساء ٢١ مايس ١٩٦٣



فتحي زهير في موسكو
(في سنة ١٩٦٥)



مجموعة من الباسبورتات الدبلوماسية لدول مختلفة

« يصف السفير الايطالي « بييترو كوراني » الدبلوماسية بأنها كرسي من الدرجة الأولى في مسرح الحياة . وهو وصف صادق حين يكون الدبلوماسي متفرجاً يرقب الأحداث وهي تتعاقب ، ويشهد التاريخ وهو يصنع . ولكن في حياة الدبلوماسي حالات يكون فيها هو بطل الرواية ، أو موضوع القصة ، فيجد نفسه في هذه المرة ، ليس على كرسي الدرجة الأولى الوثير ، بل في قلب المسرح ، وقد سلطت عليه الأضواء ، وشخصت إليه الأبصار .

ويحتوي هذا الكتاب للدبلوماسي العراقي نجدة فتحي صفوة على مجموعة من القصص مثلت على مسرح الحياة ، وكان أشخاصها دبلوماسيين شاءت لهم المقادير ان يخرجوا من صفوف المتفرجين في ذلك المسرح ، ليعتلوا خشبته ، ويمثلوا الأدوار التي اختارتها لهم .

« .. هي جميعاً قصص حقيقية ، ليست فيها إضافة من بنات الخيال ، ولا تلاعب في الوقائع ، وقعت لدبلوماسيين سمّيتهم بأسمائهم ، وصغتها باسلوب لم أسمح فيه لقواعد الكتابة القصصية ان تحور شيئاً من وقائعها ، ولا للحقائق التاريخية والأحداث الجافة ان تشوّه شكلها القصصي ... »

٤ ل.ل. او ما يعادلها